الفصل الثانى

الخوارج

١

كان التحكيم هو الفرصة المناسبة للتعبير عن سخط المحكمة الأول ، فقد تحيروا أيقبلون إجابة أهل الشام إلى رفع المصاحف ، أم يرضون بقول علىّ إنها خدعة حربية لجأ إليها معاوية وصحبه لما أشرفوا على الهزيمة ؟

ووقع جدل واسع فى هذا الشأن ، ولكنهم أجمعوا رأيهم على أن يقف القتال ، وعادوا بعد ذلك فشعروا أنهم قد خدعوا وبخاصة عندما تمت كتابة الصحيفة التى لم تحو أن علياً أمير المؤمنين . وبعد أن تضمنت الصحيفة تحكيم رجلين فى الأمر ، فثاب المحكمة إلى رشدهم وكرهوا ما آل إليه الأمر ونفروا من التحكيم ومن أن يحكم أحد فى كتاب الله ، إذ حكم الله واضح جلى فى هذا الشأن ، والتحكيم ليس إلا تعبيراً عن شك كل فريق من المتحاربين أيهما المحق ؟ وليس يصح هذا الشك أو التحير ما داموا وقتلاهم قد حاربوا وهم يؤمنون أنهم على الحق .

وصاغ واحد منهم وهو غير معروف بالقطع هذه المعانى المختلجة فى عبارة صرخ بها تقول : « لا حكم إلا الله » ، فإذا بها تسرى سريان البرق وتتجاوب بها الأنحاء لتصبح شعار الجماعة المتحرجة .

وعند عودة الجيش إلى الكوفة انحازوا إلى حروراء وأقاموا عبد الله بن الكواء اليشكرى إماماً على الصلاة وشبث بن ربعى أميراً على القتال ، وتنادوا بأن الأمر شورى وبأن التبعية لله عز وجل واتخذوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منهجاً .

وإحساساً بخطئهم وبحاجتهم إلى التفكير طلبوا من علىّ أن يقر على

نفسه بالخطأ بل وبالكفر لتحيره ، ولشكه ولقبوله التحكيم وطالبوه أن يرجع عما أبرم مع معاوية من شروط ، وعلقوا عودتهم إليه على نقضه لهذه الاتفاقية ، ولكن علياً رفض وأصبح موقفه غاية فى الحرج ، إذ كيف يرجع عن اتفاق أمضاه والدين يأمره بالوفاء بالعهد ، ولو رجع عن اتفاقيته لتفرق عنه جمهور أصحابه الذين ضاقوا بالحرب وجنحوا إلى السلم ، وكيف يقر على نفسه بالكفر وهو لم يشرك بالله شيئاً ؟ وقد استطاع على أن يقنع جمهورهم بالرجوع إلى الكوفة والانتظار ولكنهم أخذوا يضايقونه ويشغبون عليه ويتصايحون بقولهم لا حكم إلا لله ، يقاطعونه بها إذا تحدث ويعرّضون به بمناسبة ودون مناسبة[١] وكان على يقول دائماً : إنها كلمة حق أريد بها باطل ، وقد هادنهم إلا أن يقاتلوه فيقاتلهم[٢] . وكان يرغب فى أن يهادنهم حتى تظهر نتيجة التحكيم .

فلما انتهى أمر التحكيم إلى ما انتهى إليه لم تكن نتيجته لترضى الخوارج ، لأنهم لا يمكن أن يقروا ما أقره الحكمان من أن عثمان قتل مظلوماً لأنهم حاربوا على عكس ذلك ، ومال على حينئذ إلى قتال أهل الشام بعد ما تكشفت نتيجة التحكيم ، فأرسل إلى الخوارج بأن قد جاءكم ما كنتم تريدون[٣] ولكنهم لم يجيبوه إلى طلبه اعتقاداً منهم بأنه لا يثوب إلى القتال الآن إلا دفاعاً عن ملكه ، وليس جهاداً فى سبيل الله ، واجتمعوا وتدارسوا أمرهم ، وقال قائلهم إنه لا ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق ، وأزمعوا الخروج عن هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو المدن منكرين لهذه البدع المضلة .

وكان هذا الانشقاق الجديد بعد عام من عودتهم إليه ، وكان سببه المباشر زعمهم أن علياً كان قد وعدهم بأن يخرج لقتال أهل الشام دونما إبطاء ، ولكنه

---

(١) ابن كثير ج ٧ ص ١٨١ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٤١ .
(٣) أنساب الأشراف ج ٢ / ص ٣٩٤ .

خيب أملهم حينما بعث أبا موسى الأشعرى إلى التحكيم، فلما انتهت مهزلة التحكيم عاد يطلب إليهم قتال أهل الشام ، ولكنهم رفضوا، وكانوا فى هذه المرة أقل عدداً ، وإن كانوا أصلب عزماً وأشد تصميماً ، فنصبوا لأنفسهم خليفة اختاروه هو عبد الله بن وهب الراسبى الأزدى المعروف بذى الثفنات لأن ركبه قد صارت كثفنات الإبل من كثرة السجود ، وكانت بيعته فى منزل زيد ابن حصن ، وكان عبد الله يمتنع عليهم تحرجاً ويستقبلهم ويومى إلى غيره تحرزاً فلم يقنعوا إلا به ، وكان يوصف برأى ونجدة[١] ، وكان ذلك فى العاشر من شوال سنة ٣٧ هـ ، وخرجوا من الكوفة وحداناً مستخفين ، واتعدوا النهروان على الجانب الآخر من دجلة ، وهناك عرضوا على خوارج البصرة وكان عددهم خمسمائة رجل أن ينضموا إليهم تحت قيادة مسعر بن فدكى التميمى .

وأناطوا بعبد الله قيادتهم فى جهاد الكفار ، ومن هؤلاء الكفار ، علىّ وشيعته ، وكان علىّ قد يئس من عودتهم إلى صفوفه بعد أن ناظرهم وتمكن من إقناع قليل منهم بالرجوع ، وبعد أن بعث إليهم ابن عباس ليناظرهم فأصروا على رأيهم ، وأن يتوب علىّ حتى يرجعوا إليه[٢] . ولكن أنصار علىّ خشوا أن ينهضوا لقتال أهل الشام وأن يتركوا هؤلاء خلف ظهورهم يعيثون فساداً فى ديارهم ويقتلون ذراريهم ويفزعون نساءهم ، وكان ذلك بعد أن تجرأ الخوارج فقتلوا عامل علىّ على المدائن عبد الله بن خباب وبقروا بطن امرأته ، كما قتلوا رسول علىّ إليهم الذى ذهب يستوضح الأمر ، ورفضوا أن يدفعوا إليه القتلة ، وحاول أن يوضح لهم أنه لا يختلف عنهم فى ضرورة تحكيم السيف فى أهل الشام ، ولكنهم أجابوه بأنهم لو بايعوه اليوم لحكّم غداً ، ولم يقبلوا أى شىء وتهيئوا للقتال وتنادوا بالرواح إلى الجنة .

والتقى بهم علىّ فى النهروان ، وكان أشد الناس عليهم أمير حربهم

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ١٧٧ .

(٢) نقد العلم والعلماء ص ٩٧ .

السابق شبث بن ربعى الذى رجع إلى علىّ ولم يكن الخوارج يزيد ونعلى أربعة آلاف، واستطاع علىّ أن يقضى عليهم وإن لم يستأصل شأفتهم . فقد رجع منهم قبل المعركة مائة فانضموا إلى علىّ وانحاز خمسمائة فارس على رأسهم فروة بن نوفل إلى الدسكرة وقتل الباقون إلا ثمانية أشخاص .

وقد أثمرت موقعة النهروان والسخط الناتج عنها قتل علىّ، وأصبح للنهروان نفس الأثر الذى كان لكربلاء عند الشيعة إذ وجد العامة فى استشهادهم حدثًا فذًّا يثير الإعجاب والحماس، وكان من نتيجتها أيضًا رغبة الخوارج فى التكفير عن خذلانهم لإخوانهم شهداء النهروان ، فقاموا بعدة ثورات صغيرة .

ويروى ابن الأثير أخبار بعض هذه الثورات الصغيرة مثل تلك التى أشعلها أشرس بن عوف الشيبانى الذى نزل الدسكرة فى مائتى رجل فقتل سنة ٣٨ هـ ، وخروج هلال بن علفة التميمى وأخيه مجالد فى مائتى رجل فى ما سباذان وقتلهما فى جمادى الأولى سنة ٣٨ هـ ، وكذلك خروج الأشهب بن بشر البجلى فى مائة وثمانين رجلا وقتله فى جرجرايا على الدجلة ، وكان أخطر هذه الخرجات ما قام به أبو مريم من بنى سعد تميم ، وقد نجح أبو مريم فى دق أبواب الكوفة وقاتل أحد قواد علىّ قتالا باسلا فى جيش جميعه من الموالى ، ولكنه قتل فى رمضان سنة ٣٨هـ[١].

وكان فروة بن نوفل الأشجعى قد ترك ميدان القتال فى النهروان وانصرف فى خمسمائة فارس معرضًا عن قتال علىّ ، فنزل الدسكرة ناحية شهروز ، ولحق به خنثر بن عبيدة المحاربى . وقد ظلوا على عهدهم فلم يتعرضوا لعلىّ حتى قتل ، فلما نزل معاوية النخيلة على أثر صلحه مع الحسن انتهزوا الفرصة وساروا إليه فقاتلوا فريقًا من أهل الشام تعرض لهم حتى كشفوهم وحينئذ توجه معاوية إلى أهل الكوفة بالأمان لهم عنده حتى يكفوا بوائقهم ويكفوه شر إخوانهم ، فخرج

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٣١٣ ، اليعقوبى ج ٢ ص ٢٦٢ .

أهل الكوفة لقتال الخوارج فقالوا لهم : ويلكم ما تبغون ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم ، وإن أصبنا كنتم قد كفيتمونا فأبى أهل الكوفة إلا القتال ، فقال الخوارج : رحم الله إخواننا من أهل النهر هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة[١] .

وانهزم الخوارج أمام الكوفيين ، ولكن انهزامهم لم يكن ليثنيهم عن عزمهم على الدفاع عما يعتقدون أنه الحق ، ولم ينتخب الخوارج إماماً جديداً بعد مصرع الراسبي فى النهروان إلى أن تولى المغيرة بن شعبة ولاية الكوفة فانتخبوا المستورد بن علفة التميمى ، وكان أخواه هلال ومجالد قد استشهدا عند ماسباذان بعد النهروان بقليل . أما المستورد نفسه فكان من الذين ارتثوا فى النهروان وعفا عنه علىّ فى أربعمائة من المرتثين سمح لأهلهم باحتمالهم والعناية بهم ، فلبث بعد النهروان فى عشيرته شهراً أو نحوه ثم خرج إلى الرى فى رجال حتى بلغهم مقتل علىّ فعادوا إلى الكوفة لينتقموا لشهداء النهروان وليقاتلوا الكفرة والفاسقين .

وكان المغيرة قد قرر أن يسير فى الناس سيرة هينة لا ينظر فيها إلا إلى نفسه ؛ فأحب العافية وأحسن السيرة فى الناس ولم يفتش عن أهل الأهواء ما داموا لا ينقلون الكلام إلى دائرة الفعل ، وتغاضى تبعاً لذلك عن الخوارج الذين كانوا يجتمعون ويتبادلون الرأى والنظر ويتذاكرون إخوانهم من أهل النهروان ، واتفقوا على إعلان القتال على أهل القبلة ، وعقدوا لتنظيمهم عدة اجتماعات فى دار حيان بن ظبيان حضرها معاذ بن جوين بن حصين الطائى ، وكان ابن عمه زيد بن حصين قد قتل يوم النهروان وكان معاذ بين المرتثين ، كما حضرها بطبيعة الحال إمام الخوارج آنذاك المستورد بن علفة ، واتفقت كلمة المؤتمرين على الخروج غرة شعبان سنة ٤٣ هـ[٢] .

بيد أن المغيرة أحس بهذه المؤامرة فأمر الشرطة بأن تحيط بدار حيان ،

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٩٥ .

(٢) الطبرى / جـ ٦ ص ١٠٠ .

ولكن زوجته نجحت فى إخفاء السلاح وأنكر المؤتمرون لما مثلوا أمام المغيرة ما اتهموا بتدبيره ، وادعوا أنهم إنما يجتمعون فى دار حيان لقراءة القرآن عليه فلم يقنع المغيرة وأمر بسجن بعضهم حيث قضوا فى السجن قرابة عام وكان بين المسجونين معاذ بن جوين الشاعر[١] .

ومن داخل السجن تلقى المستورد قصيدة رائعة من معاذ يدعوه وأصحابه إلى الخروج ضد الكفار ، فخرج حتى نزل الحيرة ثم تركها واستتر وأصحابه فى الكوفة فى دار سليم بن محدوج وكان صهراً له ولم يكن خارجيًّا ، وبلغ المغيرة أن الخوارج يدبرون أمراً فخطب الناس محذراً وتنادى رؤساء القبائل أن يدل كل على سفهاء قومه ، وخشى المستورد على صهره فقرر الارتحال وبعث إلى أصحابه أن يخرجوا حتى لا يتسببوا فى إيذاء غيرهم ، واتعدوا بهرسير قرب المدائن ، وخرجوا منقطعين وتتاموا بها ثلثمائة رجل ، ثم ساروا إلى الصراة فباتوا بها ليلة وعلم المغيرة بخبرهم فانتدب لهم ثلاثة آلاف من شيعة الكوفة ، وفرسانهم وأمر عليهم رجلا من كبار الشيعة هو معقل بن قيس الرياحى[٢] وفى هذه الأثناء أرسل المستورد كتابًا إلى عامل المغيرة ، يدعوه إلى مذهبه ، ولكنه امتنع بطبيعة الحال .

وخرج المستورد وصحبه على شاطئ دجلة حتى انتهوا إلى جرجرايا فعبروا النهر ومضوا فى أرض جوخى حتى بلغوا المذار التابعة للبصرة ، ومر جيش الشيعة حتى نزل كوثى ، فبهرسير وخاب ظنهم لأن الخوارج كانوا ارتحلوا ، وتبين لهم ألا مفر من الاستمرار فى مطاردتهم ولم يزل هذا دأبهم حتى لحقوا بهم عند المذار وهناك دارت معركة هزم فيها الخوارج ولم تكد المعركة تنتهى حتى دب الهلع فى نفوس الخوارج إذ جاءتهم الأنباء بسير جيش آخر من ثلاثة آلاف من شيعة البصرة بقيادة شريك بن الأعور الحارثى إليهم ، فمضوا فى الليل بطريق

---

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٠٤ .

(٢) الطبرى جـ ٦ / ١٠٨ – ١١٨ .

منعزل إلى أرض الكوفة حيث نزلوا جرجرايا من جديد وحالوا دون لحاق أهل البصرة بهم .

وأرسل معقل أبا الرواغ قائد طليعته فى ستمائة فارس على أثرهم ، وحث الخوارج السير حتى نزلوا ساباط وانتهوا إلى جسر هناك ، وأراد المستورد أن يخدع أبا الرواغ فيستدير ليهاجم كتلة الجيش ذاته بقيادة معقل الذى نزل قرية ديلمايا على مبعدة ثلاثة فراسخ عن بهرسير وفوجىء معقل باستدارة المستورد فاضطرب جيشه الذى لم يبق منه غير ثلثمائة رجل جثوا على ركبهم يستقبلون الموت لولا أن ظهر أبو الرواغ فجأة فحمل على الخوارج من المؤخرة واحتدم القتال حتى قضى على الخوارج تماماً ، ولم تنته الوقعة إلا بمبارزة عنيفة بين المستورد ومعقل بن قيس خرا فى نهايتها قتيلين معاً[٢] .

وهكذا أفلح المغيرة فى أن يضرب خصمى الدولة بعضهما ببعض، وإزاء تفاقم خطر الخوارج ولى معاوية زياد بن أبيه البصرة عام ٤٥ هـ، وقد أوضح زياد سياسته التى سيسير عليها فى حكم هذه البلاد ، وهى سياسة البطش والجبروت تلك السياسة التى وطدت أركان ملك معاوية واستتب بها الأمن والطمأنينة ، وقد أخذ زياد الخوارج بالشدة فأوقع فى قلوبهم الرعب فانقادوا له وظلوا سنوات طويلة لا يفكرون فى عمل جديد بعد ثورة المستورد تلك .

وفى عام ٥٣ هـ ، أضاف معاوية لزياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة ، فأخذ أهلها بما أخذ به أهل البصرة من الغلظة وأعمل فى أهلها السجن والتنكيل وقطع أيدى ثلاثين رجلا حصبوه فى المسجد، وأوقع بحجر بن عدى وصحبه من الشيعة ، وكان يقيم ستة أشهر فى البصرة وستة أشهر فى الكوفة . فضعفت شوكة الخوارج ، لما أبداه زياد من القسوة فلم تقم لهم قائمة مدة ولايته حتى تولى البصرة ابنه عبيد الله ، فظنوه هيناً وانتخبوا خليفة جديداً ولم يكونوا قد نصبوا أحداً بعد فضل المستورد ، وكان انتخابهم خليفة جديداً يعنى دائماً استئناف القتال ضد الجماعة[١] .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٠٨ — ١١٨ . (٢) الخوارج والشيعة ص ٥٧ .

وكان على الكوفة قبل أن يجمع العراق لابن زياد ابن أم الحكم الثقفى ، وقد شعر الخوارج فى هذه الفترة وبعد هذا الخمود بالندم على سكوتهم فبايعوا حيان ابن ظبيان خليفة ، وكان أول من بايعه معاذ بن جوين الطائى الذى اقترح الخروج إلى حلوان ، ولكن الخليفة الجديد لم يستجب للفكرة لقلة عدد أصحابه الذين لم يكونوا يزيدون بحال على المائة فاقترح الخروج إلى ما يجاور الكوفة والسبخة من القرى ، وأن يلتقوا بالقوم فيقاتلونهم حتى يلحقوا بربهم ، ولكنهم لم يستجيبوا أيضًا لهذه الفكرة التى لا تجديهم شيئًا ، وثبت حيان على رأيه ولم يشأ الباقون أن يعارضوه بيد أنهم رأوا ألا يقاتلوا فى الكوفة خوفًا من أهلها أن يرجموهم بالحجارة من فوق سقوف المنازل ، وعولوا على السير إلى بانقيا على مسافة قريبة من الكوفة فاستقبلوا القوم وجعلوا البيوت إلى ظهورهم ، وبعث إليهم ابن أم الحكم[1] بجيش قتلهم عن آخرهم وكان ذلك فى نهاية عام ٥٩ هـ ، وكانت هذه نهاية الخوارج فى الكوفة التى لم تكن لتتحمل نشاطهم وسلطان الشيعة فيها غير منازع . وكان فى القضاء على خوارج الكوفة أثر كبير فى ازدياد نشاط الخوارج فى البصرة .

وكان هذا النشاط قد بدأ منذ عام الجماعة حينما ثار فيها سهم بن غالب التميمى والخطيم الباهلى فى سبعين رجلا ، وعثروا فى طريقهم بعبادة بن قرص الليثى أحد بنى بجير ، وكانت له صحبة ، يصلى عند الجسر فأنكروه وقتلوه فاضطرهم والى البصرة ابن عامر إلى التسليم فسألوه الأمان فأمنهم .

وعندما تولى زياد البصرة فى منتصف سنة ٤٥ هـ خافه سهم بن غالب فخرج إلى الأهواز داعياً إلى الثورة وقتل مسلماً هناك لم ينكر إيمانه بينما خلى سبيل يهود صرحوا بيهوديتهم ، وتجاسر سهم على الذهاب إلى البصرة ، ولكن أنصاره فيها تخلوا عنه إزاء شدة زياد فاضطر إلى الاستتار ، وطلب الأمان فلم يؤمنه زياد وطلبه حتى أخذه فقتله وصلبه على بابه وكان ذلك فى سنة ٤٦ هـ . أما الخطيم

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٥٠ .

فأظهر الفتنة فنفاه زياد إلى البحرين ، ثم أذن له فقدم على أن يلزم بيته وضمنه مسلم بن عمرو على أن يعلم زياداً إذا ما بات خارج بيته ، وذات يوم أعلمه مسلم بذلك فأمر زياد به فقتل وألقى فى باهلة[١] وفى سنة ٥٠ هـ ، خرج قريب الأزدى وابن خالته زحاف الطائى فى سبعين رجلا فمرا بشيخ يقال له حكال من بنى ضبيعة فقتلوه وتفرقوا بعد ذلك حيث قتل قريب ، وبعد هذا الحادث اشتد زياد وعامله فى البصرة سمرة بن جندب على الخوارج وطالب أهل البصرة بأن يكفوه أمرهم ، فكانوا يثورون بهم فيقتلونهم ، وقد قتل زياد من الخوارج فى البصرة وحبس آلافاً كثيرة ، ولكن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن هذه الأعداد الكثيرة التى يذكرها المؤرخون العرب لا تقبل التصديق فضلا عن أن الخوارج البصريين كانوا يسلكون مسلك اللصوص والسفاحين ، وكانت الفوضى التى تسود البصرة بعكس الكوفة مجالا ملائماً لهم ، فليس غريباً أن تعاملهم الشرطة معاملة سائر المجرمين الذين يعكرون صفو الأمن حيث إن الشرفاء من الخوارج كانوا غير راضين عن سلوكهم ، حتى إن أبا بلال مرداس بن أدية لعنهم وبرئ منهم كما أبرأ والى البصرة من دمهم[٢] وقد ابتدأ ابن زياد ولايته للبصرة سنة ٥٥ هـ ، بمهادنة الخوارج فطمعوا فيه وحسبوه أسمح من أبيه عندما أطلق سراح عدد كبير منهم ، ولكنه إزاء نشاطهم المتزايد فكر فى اتخاذ طريقة أخرى هدفها أن يوقع بينهم فاصطفى لنفسه منهم جماعة برئاسة رجل يدعى جدار ثم تركهم يقاتل بعضهم بعضاً فمن ظفر بأخيه فاز بالحرية وقد ثاب الخوارج لأنفسهم فعنفوا بها فيما بعد وراحوا يكفرون عن خطيئتهم بكفارة فعالة فعرضوا الدية على أولياء القتلى ، ثم عرضوا دماءهم من بعد وآلوا على أنفسهم أن يكفروا عما أتوا من قتل إخوانهم بالقيام بحركة عنيفة جديدة وأن يقاتلوا عبيد الله بن زياد ، وكان هؤلاء سبعين رجلا من عبد القيس اضطروا بفعل ملاحقة الشرطة لهم أن يبكروا بالهجوم قبل موعده بعد أن انكشف أمرهم أو كاد فذبحهم حراس

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٥١ – ٣٥٩ .

(٢) الخوارج والشيعة ص ٦٢ .

عبيد الله فى عيد الفطر من سنة ٥٨ هـ[١] وظل عبيد الله يتعقب الخوارج بشدة وقسوة ، فحبس من اشتبه فى أمره ومن خشى خطره .

وكان أبرز الخوارج فى البصرة أبو بلال مرداس بن أدية التميمى ، وهو شخصية نبيلة وفذة حتى لتكاد تكون شخصية أسطورية فى تاريخ الخوارج السياسى والعقائدى لأنه خالف عن كثير من معتقداتهم فكان لا يرى اشتراك النساء فى الحروب ، وكانت حماستهن فى القتال أمراً مشهوراً[٢] كما أنكر الاستعراض وهو قتل كل مسلم لا يرى رأى الخوارج بغير تمييز متى وجدوه فى طريقهم ، وقد مر بنا كيف استنكر سلوك بعض الخوارج الذين عاثوا فى البصرة فساداً ، وقد حبسه ابن زياد بين من حبسهم من الخوارج ، ولكن أبا بلال استطاع أن يستميل سجانه وأن ينال الإذن منه فى الانصراف أثناء الليل ليزور أهله فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن . وكان لأبى بلال صديق من ندماء ابن زياد فذكر ابن زياد الخوارج ذات ليلة وعزمه على قتلهم إذا أصبح فانطلق هذا الصديق إلى بيت مرداس فأخبر أهله وأشار عليهم أن يرسلوا إليه فى السجن ليعهد فإنه مقتول ، وبلغ مرداس الخبر عندما عاد إلى بيته كما نمى الخبر إلى السجان الذى بات ليلة سوء إذ خشى ألا يعود السجين ، وكم كانت دهشته عندما عاد مرداس إلى السجن وفى الصباح جعل ابن زياد يقتل الخوارج فوثب السجان وكان ظئراً لعبيد الله يستشفعه ليهب له رأس مرداس بعد أن قص عليه قصته فوهبه له[٣] .

وكان أخوه عروة بن أدية من رءوس الخوارج وهو فى أشهر الروايات أول من حكّم فى صفين ، وكان له أتباع وأصحاب وشيعة ، ويروى الطبرى أن ابن زياد كان قد خرج فى رهان له ، فلما جلس ينظر الخيل اجتمع الناس وحسبها عروة فرصة مناسبة لينال من ابن زياد ويذكره بجرائمه فانطلق يقول له : خمس

---

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٢٧ .
(٢) الأغانى جـ ٦ ص ٦ .
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٥ .

كن فى الأمم قبلنا فقد صرن فينا ، قال تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين » فقهم ابن زياد من كلامه أنه بداية فتنة فقام وترك رهانه وأضمر الشر لعروة الذى أدرك خطورة ما فاه به فتوارى غير أن ابن زياد طلبه حتى قبض عليه ومثل به أمامه فقطعت يداه ورجلاه وقال له : كيف ترى ؟ قال : أرى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك فقتله[١].

وكان عروة آية فى التجلد والصبر ، فعند ما ظفر به ابن زياد قال له لأمثلن بك ، فقال عروة : اختر لنفسك من القصاص ما شئت فلما أمر به فقطعت يداه ورجلاه وصلبه على باب داره التفت إلى بعض أهله فقال لهم وهو مصلوب : انظروا إلى هؤلاء الموكلين فأحسنوا إليهم فإنهم أضيافكم[٢].

وأرسل ابن زياد إلى ابنة عروة فقتلها[٣] ولقيت نفس المصير امرأة أخرى شديدة الحماسة تدعى البجاء كانت تخطب خطباً نارية مثيرة ضد ابن زياد فقبض عليها وقتلها فى سوق البصرة[٤].

وقد كان لكل هذا أثره البالغ فى نفس أبى بلال شقيق عروة فخرج فى أربعين رجلا إلى الأهواز سنة ٦٠ هـ ، وقد رأى أنه لا يحق له أن يعيش فى البصرة تحت هذا السلطان ، ومضى وصحبه فلم يتعرضوا لأحد بسوء ولم ينالوا من الخراج — وقد لقيهم فى الطريق وكان فى مكنتهم استلابه — إلا ما هو مفروض لعددهم ، ولم يعتدوا ، ولكنهم اضطروا إلى أن يدفعوا عن أنفسهم الاعتداء فقد شعر به ابن زياد فبعث فى أعقابه بألفى رجل على رأسهم ابن حصن التميمى وفى آسك دارت معركة أشبه بالملاحم الأسطورية قاتل فيها أبو بلال ورجاله الأربعون

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٣ .

(٢) لسان الميزان جـ ٤ ص ١٦٣ شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٣٨٠ ، المعارف ص ١٤١ ، العقد الفريد جـ ١ ص ٢٧١ .

(٣) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٣ .

(٤) ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٢٨ .

هذين الألفين قتالا مجيداً حتى اضطروهم إلى الفرار بعد أن قتل فيهم وصحبه مقتلة عظيمة أشاد بها شاعرهم عيسى بن فاتك الحبطى[١].

ولم يصبر ابن زياد على هذه الهزيمة المنكرة ، فبعث إلى أبى بلال بجيش من ثلاثة آلاف رجل بقيادة عباد بن الأخضر التميمى سنة ٦١ هـ ، فحمل عليهم أبو بلال وصحبه . وطلب الخوارج إلى عباد أن يؤمنهم حتى يصلّوا فأعطاهم الأمان وما كادوا يسجدون حتى حشّهم عباد وجنده بسيوفهم فقتلوهم عن آخرهم .

ولدى عودة عباد بجنده إلى البصرة أقبل عبيدة بن هلال اليشكرى وهو من رءوس الخوارج وفرسانهم ومعه ثلاثة نفر من الخوارج فرصدوا عباداً وهو عائد إلى قصر الإمارة مردفاً ابناً له صغيراً ، فقالوا : يا عبد الله قف لنستفتيك فوقف فقالوا : نحن إخوة أربعة قتل أخونا فما ترى ؟ قال استعدوا الأمير ، قالوا : استعديناه فلم يعدنا ، قال : فاقتلوه قتله الله ، فوثبوا عليه فحكّموا وألقى ابنه فقتلوه[٢].

وقد صار أبو بلال عند خوارج البصرة القديس الحقيقى وإن لم يتمثلوه فى رقة نفسه ودماثة خلقه ، وقد أثار مقتله ومقتل أصحابه على هذا النحو من الغدر حفيظة الخوارج ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون شيئاً طالما كان ابن زياد وطيد المكانة فى ولايته ، وقد اضطر الخوارج تحت ضغط ابن زياد وشدته معهم إلى مغادرة البصرة عقب مقتل أبى بلال وصحبه ، فاتجهوا إلى مكة استجابة لنداء نافع بن الأزرق الذى قال لهم : إن الله قد أنزل عليهم الكتاب وفرض عليهم الجهاد واحتج عليهم وقد جرد أهل الظلم فيهم السيوف فليخرجوا إلى هذا الذى ثار بمكة فإن كان على رأيهم جاهدوا معه وإن لم يكن على رأيهم دافعوه عن البيت[٣].

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٤ .
(٢) ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٢٨ .
(٣) الطبرى جـ ٧ ص ٥٥ .

وفى مكة أنهى إليهم ابن الزبير أنه على رأيهم من غير تفتيش ، وأتيح لهم أن يشهدوا حصار جيش يزيد بن معاوية بقيادة الحصين بن نمير للكعبة وأن يساندوا ابن الزبير فى الزود عنها . وقد توفى يزيد بن معاوية أثناء الحصار فرفع عن مكة وانصرف أهل الشام[١] بعد أن رفض ابن الزبير أن يسير معهم ، وهنا ظهر الخلاف بين موقف الخوارج السياسى وبين موقف ابن الزبير ، وتبين لهم أنه ليس الرجل الذى أمّلوه فارتحلوا عنه ومضى بعضهم إلى البصرة بينما مضى البعض الآخر إلى اليمامة[٢] .

فبينما ذهب أبو طالوت وابن الأسود وأبو فديك وكلهم من بكر إلى اليمامة ، فاستولوا عليها عاد نافع بن الأزرق إلى البصرة ومعه عبد الله بن الصفّار وعبد الله ابن إباض وحنظلة بن بيهس وعبيد الله والزبير أبناء الماحوز .

وكانت عودتهم إلى البصرة فى الوقت الذى أعقب هروب ابن زياد منها ، وقد أتاح تنازع العصبية الذى أعقب ذلك الفرصة أمامهم ليكسروا السجون وليستخرجوا إخوانهم منها ، وتولى نافع بن الأزرق قيادة ثلثمائة رجل وخرج يريد الأهواز ، وكان فى ذلك نهاية شوال سنة ٦٤ هـ ، وقد نجح فى السيطرة عليها وعلى ما وراءها من بلدان فارس وكرمان ، فجبى خراجها وكثر أتباعه وانتشر عماله فى السواد وأوقع الفزع فى قلوب أهل البصرة وقتل عمال ابن الزبير فى كل هذه الأنحاء .

واجتمع لابن الأزرق جمهرة الخوارج ، فكان معه رءوسهم كعطية بن الأسود الحنفى وأبناء الماحوز وعمر بن عمير العنبرى وقطرى بن الفجاءة المازنى وعبيدة بن هلال اليشكرى وصخر بن حبناء التميمى وصالح بن مخراق العبدى وعبد ربه الكبير وعبد ربه الصغير وغيرهم فى زهاء ثلاثين ألف فارس ممن يرى رأيه وينخرط فى سلكه[٣] .

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ٦٩ .
(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ٨٠ .
(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ١٧٩ .

فلما اصطلح أهل البصرة على إمارة عبد الله بن الحارث بن نوفل القرشي اجتمعوا ضد الخوارج المتبقين فى البصرة واضطروهم إلى الفرار واللحاق بنافع بن الأزرق إلا قليلا منهم ممن لم يكن أراد الخروج آنذاك . ومنهم عبد الله بن الصفّار وعبد الله بن إباض وحنظلة بن بيهس الذين اختلفوا ورجال معهم على الرأى مع نافع بن الأزرق ، وكان الخلاف قد وقع على أساس أن نافعًا كان يرى وجوب مفارقة المسلم الصحيح الإيمان لديار المشركين وتحريم الإقامة بين ظهرانيهم ، ولكن هؤلاء كانوا يرون غير رأيه فاختلفوا معه ، ولكنهم ما لبثوا أن اختلفوا فيما بينهم أيضًا .

وعلى الرغم من أن المصادر القديمة لا تقدم لنا الكيفية التى انقسم بها الخوارج إلى أربع فرق كبيرة مكتملة فى ذلك الوقت ، بينما اكتفت المصادر المتأخرة من التى تؤرخ لعلم الكلام بالنظر إليها على أنها فرق كلامية مكتملة فحسب ، فإننا لا بد واجدون صورة لهذه الكيفية فى الأحداث التاريخية المعاصرة لانقسامهم .

ونحن نستبعد ابتداء ما ذهب إليه بعض الباحثين المحدثين من أن انقسام الخوارج كان نتيجة خطة مدبرة هدفها تطويق الدولة من جميع أطرافها[١] ذلك أن الخلاف الذى وقع على أثره الانقسام لم يكن خلافًا ظاهريًا كما يقتضى هذا الزعم أن يكون ، وإنما كان خلافًا عقائديًا ومنهجيًا حقيقيًا سجله التاريخ وقطع بصحته .

وأول ما نبدأ به فى استيحاء الأحداث المعاصرة لهذا الانقسام ، أن الانقسام قد حدث قبل ذلك وفى مكة بالذات على أثر مناظرة ابن الزبير ، فهؤلاء الذين فارقوا بادئ ذى بدء واتجهوا من مكة إلى اليمامة لم يكن فيهم نجدة ابن عامر الحنفى الذى أصبحت فرقة النجدات تدعى منسوبة إليه . وكان هؤلاء هم أبو فديك عبد الله بن ثور من بنى قيس بن ثعلبة

---

(١) أدب الخوارج ص ٣٦ .

وعطية بن الأسود الحنفى وأبو طالوت من بنى بكر بن وائل .

ويذكر الشهرستانى أن نجدة خرج من اليمامة مع عسكره يريد اللحاق بالأزارقة . فاستقبله أبو فديك وعطية بن الأسود فى الطائفة الذين خالفوا نافعاً فأخبروه بما حدث وبما أحدثه نافع من الخلاف بتكفير القعد عنه وبسائر الأحداث والبدع ، وأعلنوه بخلافهم مع نافع وبايعوه وسموه أمير المؤمنين[١] .

ويبدو أن نجدة كان قد ارتحل إلى اليمامة إثر هزيمة النهروان ، فالشهرستانى يذكر أن من الذين نجوا من المعركة وكانوا أقل من عشرة انهزم اثنان إلى اليمن[٢] .

وتتفق الروايات على أن نجدة التقى بهؤلاء المخالفين لنافع بالعرمة وأنهم أبلغوه بتكفير نافع للقعدة وإصراره على الاستعراض وقتل الأطفال فانصرفوا معه فلما صار باليمامة كتب إلى نافع رسالته الشهيرة التى ينعى عليه فيها مذهبه المتشدد والتى تجرى على هذا النحو : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم وللضعيف كالأخ البر لا تأخذك فى الله لومة لائم ولا ترى معونة ظالم ، كذلك كنت أنت ، وأصحابك ، أما تذكر قولك : « لولا أنى أعلم أن للإمام العادل مثل أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين » فلما شريت نفسك فى طاعة ربك ابتغاء رضوانه وأصبت من الحق فصه وركبت مرّة تجرد لك الشيطان ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك فاستمالك واستهواك واستغواك وأغواك فغويت فأكفرت الذين عذرهم الله فى كتابه من قعد المسلمين وضعفتهم ، فقال جل ثناؤه وقوله الحق ووعده الصدق : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله » ، ثم سماهم الله أحسن

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٩٠ .

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٧٦ .

الأسماء ، فقال : « ما على المحسنين من سبيل » ، ثم استحلت قتل الأطفال وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن قتلهم وقال عز ذكره : « ولا تزر وازرة وزر أخرى »، وقال سبحانه فى القعد خيراً وفضل الله من جاهد عليهم ، ولا تدفع منزلة أكثر الناس عملا منزلة من هو دونه ، أو ما سمعت قوله عز وجل : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر » فجعلهم الله من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم ، ورأيت ألا تؤدى الأمانة إلى من خالفك والله يأمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها فاتق الله وانظر لنفسك واتق يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً فإن الله عز وجل بالمرصاد وحكمه العدل وقوله الفصل والسلام[1] وقد رد عليه نافع برسالة فسر فيها ما عابه عليه وما دان به من إكفار القعد وقتل الأطفال واستحلال أمانات أهل الجماعة ، وهى الأسس التى قام عليها الخلاف ، يقول نافع : أما هؤلاء القعد فليسوا كما ذكرت ممن كان بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلا ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً ، وهؤلاء قد فقهوا الدين وقرءوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم إذ : « قالوا كنا مستضعفين فى الأرض» فقيل لهم : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » وقد قال : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » ، وقال : « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم» ، فخبر بتعذيرهم وأنهم كذبوا الله ورسوله ، وقال : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » فانظر إلى أشمائهم وسماتهم . وأما أمر الأطفال فإن نبى الله نوحاً عليه السلام كان أعلم بالله يا نجدة منى ومنك ، فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » فسماهم بالكفر وهم أطفال قبل أن يولدوا فكيف كان ذلك فى قوم نوح ولا تقوله فى قومنا ؟ والله يقول : « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر » ، وهؤلاء كمشركى العرب

(١) الكامل جـ ٢ ص ١٧٧ والعقد الفريد جـ ١ ص ١١٤ .

لاتقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلاالسيف أو الإسلام ،وأما استحلال أمانات من خالفنا فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم فدماؤهم حلال طلق وأموالهم فيء المسلمين وقد عد نافع نجدة وجميع من خالفوه كافرين فدعاهم فى آخر رسالته إلى تقوى الله ومراجعة النفس والتوبة مما وقعوا فيه من الخذلان والقعود[١].

وواضح ما فى تفسير نافع من غلو ومجانبة للاعتدال فيما ظنه من قول الله تعالى: « قالوا كنا مستضعفين فى الأرض » ؛ وقد نزلت الآية فى طائفة ممن تكلموا بالإسلام وخرجوا مع المشركين فى بدر فأصيبوا فيمن أصيب من المشركين وقتلوا كفاراً ، وكذلك فى قوله تعالى : « فرح المخلفون » إذ نزلت فى جماعة من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ولم يخرجوا فى طاعة الله ومرضاته ، وأيضًا فى قوله تعالى : « وجاء المعذرون » (بالتخفيف مَن يأتون بالعذر وبالتشديد من يعتذرون كأن لهم عذراً ولم يكن ؛ أو هم المقصّرون) فهم ومن كذبوا الله ورسوله فيما كانوا يظهرون من الإيمان مسيئون ، فقوم عذروا وتكلفوا العذر بالباطل وتخلف آخرون من غير تكلف عذر وإظهار علة جرأة على رسول الله ، وفيما ذهب إليه من دعاء نوح فهو غلو لا مبرر له لأن نوحًا عليه السلام لما صنع به قومه وعلم أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن دعا عليهم دعاء غضب ولم يطلب استحلال قتلهم وقتل أطفالهم بيده ولا بيدى المؤمنين به ، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا تقتل الذرية فى الحرب . وقد اعترض عليه بأنهم أولاد المشركين فأجابهم بأن خيارهم هم من أولاد المشركين[٢].

ونافع بجعله الموحدين كمشركى العرب وإحلاله دماءهم وأموالهم إنما يتشدد تشدداً لا مبرر له حتى أصبح التشدد والغلو سمة واضحة لفرقته ، ونحن نزعم أن مرد هذا التشدد ليس إلا انعكاسًا لشخصية نافع ذاته .

---

(١) الكامل جـ ٣ ص ١٧٨ ، العقد الفريد جـ ١ ص ٢١٤ .

(٢) الكامل جـ ٣ ص ١٧٥ ، مجمع البيان جـ ٢ ص ٩٨ ، جـ ٣ ص ٥٦ — ٥٩ ، جـ ٥ ص ١٩٣

ويروى أنه كان قبل ذلك صارم اللسان كليل الفؤاد وقد حرضه أبو الوازع الراسبي على أن تكون صرامة لسانه لفؤاده وكلال فؤاده للسانه ، وراح أبو الوازع يدربه عمليًّا على القسوة والصرامة فمضى فاشترى سيفًا وأتى صيقلا كان يذم الخوارج ويدل على عوراتهم ، فشاوره فى السيف فحمده ، فقال له اشحذه حتى إذا رضيه حكّم وخبط به الصيقل وحمل على الناس فتهاربوا منه إلى أن وصل إلى حى بنى يشكر فجندله رجل ، وكرهت بنو يشكر أن يدفن فى مقبرتهم خوفًا أن يجعل الخوارج قبره مهاجراً ، وقد جعل هذا المثل من نافع بن الأزرق خارجيًّا متشدداً بعد أن كان قاعداً صارم اللسان ومنذ ذلك الحين أصبح المبدأ الأسمى عنده أنه لا يجوز المقام بين أظهر المشركين بل يجب الذهاب إلى دار الهجرة وقتالهم وبيع النفس لله فى جهادهم ، وكان لمولى من موالى بنى هاشم أثر آخر يضاف إلى أثر أبى الوازع فى غلو نافع وتشدده ، فقد أتى هذا المولى نافعًا فقال له إن أطفال المشركين فى النار وإن من خالفنا مشرك فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال ، فقال له نافع « كفرت وأدللت بنفسك » ، قال له إن لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلنى ، قال نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » ، فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم ، فشهد نافع أنهم جميعًا فى النار ورأى قتلهم[١].

وبينما تأثر نافع هذين الرجلين واتخذ من مذبحة آسك التى غدر فيها عباد ابن الأخضر بأبى بلال وصحبه وهم آمنون فى سجودهم بين يدى الله حافزاً لاهبًا للقسوة والصرامة والتشدد ، فيقتل عبيدة بن هلال أحد أتباع نافع طفلا لعباد أردفه خلفه فى طريقه إلى البصرة ، ولكن رفاقه الذين خالفوه فى البصرة كانوا أكثر ميلا وتعلقًا بمبادئ أبى بلال النبيلة التى تظهر بوضوح فى سلوكه المعتدل فى حواره مع عباد إذ طلب حواره ، فقال له أبو بلال «ما الذى تبغى ؟» فقال عباد : « أن آخذ بأقفائكم فأردكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد » قال أبو بلال : « أو غير ذلك» ؟ قال عباد : «ما هو ؟» . قال أبو بلال : « أن ترجع

---

(١) الكامل جـ ٣ ص ١٦٩ .

فإنا لا نخيف سبيلا ولا نذعر مسلماً ولا نحارب إلا من حاربنا ولا نجبى إلا ما حمينا »[١].

وهكذا يبدو لنا أن غلو ابن الأزرق وتشدده إثر وقعة آسك وما تركت فى نفسه من ألم وغير ذلك من التأثيرات التى عرضنا لها ، وما تركته تعاليم أبى بلال فى نفوس بعض الخوارج المعتدلين كان نقطة ابتداء الخلاف بين نافع والذين تركوه حيث لحقوا بنجدة ثم اختلفوا فيما بينهم بعد ذلك .

فبسبب هذا كان الخلاف بينه وبين هؤلاء الذين بقوا فى البصرة إذ أصر هؤلاء على معارضة نافع فى زعمه أن الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه ، وتحريم أكل ذبائح القوم ونكاحهم وتوارثهم ، وأنهم ككفار العرب لا يقبل منهم إلا السيف أو الإسلام ، وأن القعد بمنزلتهم وأن التقية لاتجوز استناداً إلى قوله تعالى : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » ، وإلى قوله تعالى فيمن كان على خلافهم « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .

وكان ابن الصفّار وابن إباض من تلاميذ أبى بلال المخلصين لتعاليمه ، فكانا ومن اتبعهما يرون التقية ولا يرون الدار دار كفر ولا يحبذون الاستعراض ولا يكفرون القعد فلم يلحقوا بنافع إلى الأهواز وبقوا فى البصرة ، وقد أثمر هذا الخلاف فرقتين : عرفت الأولى منهما بالصُفْرِيّة والأخرى بالإباضية وقد عمرتا أكثر مما عمرت فرقة الأزارقة أو النجدات وكل منهما بنت منهاجها على العمل أكثر من النظر .

وقد انتشرت الفرق الخارجية المعارضة للأزارقة من البصرة إلى سائر مواطن الخوارج فى دار الإسلام ، وكانت هناك فرقة من الخوارج لا تذكر كثيراً لقصر عمرها وانحصارها فى بيئة صغيرة ونعنى بها فرقة النجدات التى قامت فى اليمامة من الأرض التى تلى البصرة ، وقد نجح ابن عامر الحنفى فى إخضاع

---

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٢٦ .

(٢) الكامل جـ ٣ ص ١٦٩ .

الشريط الساحلى فى الشمال الشرقى والجنوب الغربى وجبايته ، وانتهز فرصة ضعف ابن الزبير وحكومته ولم يبال بما أظهره له عبد الملك من الود ، وكان قد وعده بولاية اليمامة إذا تعهد بالاقتصار عليها والتوقف عندها ، فلم ينقد لهذا الإغراء وراح يبسط نفوذه كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً وخلّف واليًا على اليمامة وتوجه بنفسه فى سنة ٦٧ هـ إلى البحرين فضم الأزد إلى جانبه وهاجم بنى عبد القيس فالتقوا بالقطيف وهزمت عبد القيس وقتل منها جمع كثير وسبى نجدة من قدر عليه من أهل القطيف وأقام نجدة هناك[١].

وقد شعر ابن الزبير بخطورة نجدة فدفع بابنه حمزة واليه على البصرة إلى قتاله ، فأرسل حمزة عبد الله بن عمير الليثى فى أربعة عشر ألفا من البصريين إلى القطيف ولكن نجدة أتى ابن عمير وهو غافل فقاتله وجنده طويلا وحال بينهم الليل ، فما أصبح ابن عمير حتى هاله ما رأى فى عسكره من القتلى والجرحى وحمل نجدة عليهم كرة أخرى فلم يلبثوا أن انهزموا ولم يبق عليهم وغنم عسكرهم[٢].

وبعد هزيمة ابن عمير بعث نجدة بجيش إلى عمان واستعمل عليها عطية بن الأسود الحنفى الذى استولى على البلاد وأقام شهراً ثم خرج منها واستخلف رجلا عليها قتله أبناء عباد وأهل عمان[٣] ، وبسط نجدة سلطانه على شمالى البحرين ، وأرغم بنى تميم على أن يؤدوا إليه الخراج ، ثم سار إلى غربى بلاد العرب وأخضع بنفسه جزءاً من اليمن بما فيه صنعاء وبعث أبا فديك إلى حضرموت فجبى خراجها سنة ٦٨ هـ ، وفى نهاية هذا العام حج نجدة فى ثمانمائة وستين رجلا ، وقد وافت عرفات ألوية ابن الحنفية وابن الزبير ونجدة وبنى أمية ولم ينشب بينها قتال واشتركت كلها فى الوقوف بعرفات فى سلام ،

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ١٦٦

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٦٧

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٦٧

وتخلى نجدة عن فكرة مهاجمة المدينة عند ماأخبر بأن عبد الله بن عمر قد لبس سلاحه تأهبًا لقتاله، ومضى إلى الطائف حيث جاءه هناك عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي فبايعه عن قومه، واستمر نجدة سائراً حتى تبالة جنوبًا يستعمل على هذه المواضع ويضع القواعد لإدارتها، ورجع نجدة إلى البحرين، ولكنه وإن أحجم عن مهاجمة البلدين الحرام لم يتورع عن قطع الميرة عنهما، وكانت ترد من البحرين واليمامة إليهما حتى كتب إليه ابن عباس بأن ثمامة بن أثال لما قطع الميرة عن أهل مكة وهم مشركون كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أهل مكة أهل الله فلا تمنعهم الميرة، فجعلها لهم وإنك قطعت الميرة عنا ونحن مسلمون» فاستجاب نجدة لندائه وجعلها لهم(١).

وأوشك نجدة أن يبسط سلطانه على الجزيرة العربية كلها مستغلا ضعف ابن الزبير، لولا أن انشق عليه أصحابه إذ نقموا عليه أموراً أكفروه بسببها منها أنه بعث ابنًا له مع جيش إلى أهل القطيف فقتلوا وسبوا نساءهم وقوموها على أنفسهم، وقالوا إن صارت قيمهن فى حصصنا فذاك وإلا رددنا الفضل ونكحوهن قبل القسمة وأكلوا من الغنيمة قبل القسمة أيضًا. فلما رجعوا إلى نجدة وأخبروه بذلك قال فلم يسعكم ما فعلتم قالوا: لم نعلم أن ذلك لا يسعنا، فعذرهم لجهلهم واختلف أصحابه بعد ذلك فمنهم من وافقه وعذر بالجهالات فى الحكم الاجتهادى(٢).

وكان من أسباب نقمتهم عليه أيضاً أنه أعطى بعض الجنود مالاً أكثر مما أعطى آخرين، وكان هذا أيضًا من أسباب الخلاف الذى وقع بينه وبين عطية بن الأسود فضلا عن أن عطية اتهم نجدة حين كتب إليه عبد الملك مغريًا إياه بولاية اليمامة إذا دخل فى طاعته على أن يهدى إليه ما أصاب من الأموال والدماء قائلا إنه لم يكاتبه إلا لأنه علم منه دهانًا فى الدين، وأيضًا لأنه

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ١٦٨

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٩٠

حمى بنتًا لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان بعد أن سباها من المصير الذى ينتظر السبايا ، وكان ذلك استثناء نقموه عليه ولم يبرره انزعاج ابن الزبير من أجلها وأنه كتب إلى نجدة يحذره بقوله : « والله لئن أحدثت فيها حدثًا لأطمئنّ بلادك وطأة لا يبقى معها بكرى[١] .

ومن أسباب نقمتهم عليه أنه لم يعاقب رجلا كان شديد النكاية على العدو ولكنه كان يشرب الخمر فى عسكره . وكان نجدة كلما امتد به الزمان ازدادت الاتهامات الموجهة إليه من أنصاره وعلا صوت شكايتهم منه ، ثم عاهدهم على أن يثوب ويصلح من أمر نفسه ، وقد تولى نجدة أصحاب الحدود من موافقيه وقال لعل الله تعالى يعفو عنهم وإن عذبهم ففى غير النار ثم يدخلهم الجنة فلا تجوز البراءة عنهم وإن من شرب غير مصرّ أى مزمع التوبة فهو غير مشرك[٢] .

ولقد بلغت بهم النقمة عليه حد التكفير فاستتابوه وأظهر التوبة فتركوا النقمة عليه والتعرض له ، وندمت طائفة على تلك الاستتابة وقالوا أخطأنا وما كان لنا أن نستتيب الإمام ، وما كان له أن نستتيب باستتابتنا إياه فتابوا عن ذلك وأظهروا الخطأ وقالوا له تب عن توبتك وإلا نابذناك فتاب من توبته ففارقه أبو فديك وعطية[٣] ، ففر نجدة واستخفى فى إحدى القرى حيث دلت عليه جارية فطلبه أصحاب أبى فديك ففر إلى أخواله من بنى تميم فاستتر عندهم ثم أراد المسير إلى عبد الملك فى الكوفة ، وعلم بذلك الفديكيون فقصدوه وقبضوا عليه وأوردوه حتفه بعد أن رفض الهرب على فرس قدمه له أحد المخلصين له من الفديكية ، ثم إن أبا فديك برئ من عطية كما برئ عطية من أبى فديك ، وبقى النجدات دون إمام بعض الوقت ويبدو أن قولهم بأنه لا حاجة للناس إلى إمام قط — وإنما عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم فإن رأوا أن ذلك لا يتم

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٦٨ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٩١ .
(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ١٩٢ .

إلا بإمام يجملهم عليه أقاموه — يرجع إلى هذه الفترة التى تلت مصرع نجدة ويبدو أنهم لم يتناصفوا وأحسوا بالحاجة إلى إمام فأقاموا ثابت التمّار وهو أحد الموالى إماماً مؤقتاً وكلفوه بأن يبحث لهم عمن يصلح لتولى أمرهم فاختار أبا فديك فبايعه الخوارج .

وعند نهاية سنة ٧٢ هـ ، استطاع أبو فديك أن يهزم جيشاً من أهل البصرة بقيادة أمية بن عبد الله أخى خالد والى البصرة لبنى أمية هزيمة منكرة ، ولكن أبا فديك هزم آخر الأمر أمام جيش كثيف مؤلف من أهل البصرة وأهل الكوفة بقيادة عثمان بن عبيد الله بن معمر حيث حصر جيشه فى المشقر ، واضطر إلى التسليم بعد أن قتل من رفاقه نحو ستة آلاف ، أما عطية فقد فر إلى أرض سجستان[١] .

وهكذا سقطت دولة النجدات فى اليمامة والبحرين بعد أن استمرت سبع سنوات كادت تبسط فيها سلطانها على شبه الجزيرة العربية كلها .

وفى الوقت الذى قامت فيه دولة النجدات كان نافع بن الأزرق يخضع منطقة الأهواز وكورها وما وراءها من بلدان فارس وكرمان وقد تكاثف جنده حتى بلغ ثلاثين ألفاً من الفرسان كلهم يرى رأيه[٢] .

ورأى نافع أن يعود حينئذ إلى البصرة ، وأنفذ إليه واليها لابن الزبير عبد الله ابن الحارث بن عبد المطلب القرشى الشهير ببيّة جيشاً من أهل البصرة بقيادة مسلم بن عبيس وخرج مسلم ليدافع نافعاً عن أرض البصرة حتى بلغا مكاناً يقال له دولاب على نهر الدجيل ، حيث وقع قتال لم ير أشد منه ، قتل فيه قائدا الجيشين[٣] ، فخلفهما الربيع بن عمرو الغدانى على أهل البصرة وعبد الله ابن الماحوز على الأزارقة فقتلا أيضاً ثم ولى أهل البصرة قيادتهم لربيعة الأجذم التميمى ، وأمّر الخوارج عليهم عبيد الله بن المحاوز ، واستؤنف القتال حتى المساء

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٩٢ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٨١ .
(٣) الأغانى / جـ ص ١٤٣ .

إلى أن ملّ الفريقان فتواقفوا متحاجزين وهنا أتت كتيبة جامة من اليمامة لم تكن شهدت القتال فحملت على أهل البصرة فانهزموا وقتل قائدهم وهربت جموع البصريين سابحين فى النهر حيث غرق أثناء ذلك كثير منهم ، فحمل لواء البصريين حارثة بن بدر الغدانى وقاتل من وراء الناس وغطى انسحابهم واستطاع بفرقة من جنده الصابرين أن يعبر إلى الضفة الأخرى من النهر بعد أن وعد جنده بزيادة فريضتين للعرب منهم وفريضة للموالى إذا ثبتوا وفتح الله عليهم ، ولكنه انهزم وصحبه وتبعهم الخوارج فألقى الناس بأنفسهم فى الماء وغرق منهم فى دجيل الأهواز خلق كثير ، وقد استمر حارثة بن بدر فى قومه من بنى تميم متحصنا عند نهر تيرى ليمنع الأزارقة من العبور (١).

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر قد تولى البصرة بعد يبّة فى أعقاب معركة دولاب فأسرع بإرسال جيش جديد بقيادة أخيه عثمان ، ولكنه انهزم أيضاً أمام الأزارقة فى وقعة دارس وقتل (٢) .

وعاد حارثة بن بدر ليحمل الراية ويغطى انسحاب فلّ البصريين ثم عبر نهر دجلة وتحصن عنده من جديد ، ، ولكن جنوده تخلوا عنه وعادوا إلى البصرة فوقع ضحية للأزارقة وغرق وهو يفر أمامهم بعد أن جنحت السفينة التى فر عليها عندما وثب فيها جندى بكامل سلاحه ، وفتح موته الطريق أمام الأزارقة إلى البصرة (٣) .

وكان لهذه الهزائم المتلاحقة أمام الأزارقة أن حدث تغيير فى ولاية البصرة فوليها الحارث بن أبى ربيعة الشهير بالقباع (٤) ، ونقل الأزارقة معسكرهم إلى نهر تيرى عند الموقع الذى كان يحرسه حارثة بن بدر ، وتقدموا فى طريقهم إلى البصرة ولم يعد يفصلهم عنها إلا الفرع الأصغر من الدجيل بعد أن عقدوا جسراً وعبروا عليه الفرع الأكبر .

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٨٣ .
(٢) الطبرى جـ ٧ ص ٨٥ .
(٣) الأغانى جـ ٢١ ص ٢٦ .
(٤) ابن الأثير جـ ٤ ص ٨٢ .

وازداد فزع أهل البصرة فتقدموا إلى الأحنف بن قيس يستنجدون به ويطلبون مساعدته فقصد الحارث بن أبى ربيعة والى الزبير وطلب منه أن يكتب إلى الخليفة بمكة يطلب منه أن يبعث إلى المهلب بن أبى صفرة واليه بخراسان يأمره بالقدوم إلى البصرة للدفاع عنها ، وأجاب ابن الزبير رغبتهم وكتب إلى المهلب بذلك[١] واشترط المهلب شروطاً أجيب إليها كلها ، فنهض لقتال الأزارقة وطردهم من ناحية نهر دجلة شر طردة وأقام أربعين يوماً يجبى ما حواليه من كور فى هذا الجانب ، ولما توافر له المال وجاءه الرجال مضى ناحية المشرق وأخذ يطاردهم ببطء ، وأثناء ذلك نالته هزائم منكرة إذ قتل الأزارقة أخاه المعارك بن أبى صفرة وصلبوه ، وجرت وقعة دامية بسولاف كان القتال فيها سجالا ، بيد أن الأزارقة استصوبوا الانسحاب عبر النهر فتبعهم المهلب والتقى الفريقان فى سلى وسلبرى شرقى نهر دجيل فى شوال سنة ٦٦ هـ ، وانتصر المهلب انتصاراً حاسما بعد أن ظل الموقف يترجح طويلا بين الفريقين على نحو خطير ، فقد فر بعض جنود البصرة عائدين أثناء المعركة ولكن المهلب أنقذ الموقف وأعانه قومه من أزدعمان فاستقبلوا الأزارقة بالحجارة يستعرضون بها وجوههم حتى أثخنوهم فعاجوا عليهم بالرماح والسيوف ، وقد قتل فى هذه المعركة قائد الأزارقة عبيد الله بن الماحوز [٢] .

وبعد هزيمة الأزارقة فى هذه الموقعة ارتحلوا إلى الأهواز فساروا نحو المشرق إلى الجبال وبايعوا الزبير بن على بن الماحوز ، وعلى حدود فارس اشتبكوا مع المهلب فى عدة مناوشات ، ولم يزل المهلب يطاردهم حتى تقلد مصعب ولاية العراق فى نهاية سنة ٦٦ هـ ، فولى المهلب الجزيرة لحماية حدود العراق الغربية من أهل الشام ، وتولى حرب الأزارقة بعد المهلب عمر بن عبيد الله بن معمر ، فشخص إليهم وقاتلهم عند سابور واصطخر وتمكن من هزيمتهم فانسحبوا إلى نواحى أصفهان وكرمان ، ولكنهم عادوا فاحتشدوا من جديد وزحفوا خلال

---

(١) الأخبار الطوال ص ٢٨١ .

(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ٨٩ .

بلاد فارس والأهواز فى اتجاه البصرة ، وتقدم عمر للقائهم وأقبل مصعب بنفسه من البصرة لصدهم ، ولكنهم انحرفوا ناحية الكوفة متجهين إلى المدائن فهرب أميرها عنها وأثار الأزارقة الرعب هناك .

وكان القباع قد ولى أمر الكوفة بعد أن ولى مصعب البصرة مكانه فتثاقل عن الخروج للقاء الأزارقة ولامه ابن الأشتر وحضه على الخروج ، ولكن سائر القبائل لم تتعاون معه فخرج متثاقلا متحاملا فانحرف الأزارقة إلى ناحية البصرة فتركهم وشأنهم فمضوا من ثم إلى جبال ميديا حيث دخلوا الرى بناء على دعوة من أهلها الساخطين على مصعب (١) .

ومن الرى تمكنوا من محاصرة أصفهان ولكن عتاب بن ورقاء التميمى صدهم عنها وأبلى بلاء حسنًا طوال عدة شهور ، ثم ها جمهم هجوماً شديداً أرغمهم به على الانسحاب ، وقتل أميرهم الزبير فى هذا الهجوم ، فبايعوا قطرى بن الفجاءة وكان قطرى فارساً فذًّا وشاعراً أريبا فعاد بهم إلى كرمان حتى يتجمعوا ويستعدوا ، ثم مروا بأصفهان والأهواز وزحفوا عبر نهر دجيل حتى بلغوا سولاف ، وهناك فزع أهل البصرة إذ صارت مدينتهم مهددة من جديد وكان مصعب فى هذه الأثناء مشغولا بحرب أهل الشام ، فكاتبه أهل البصرة ووالبهم بعجزهم عن مدافعة الأزارقة ، وأنهم لا يقوون عليهم ولا يقوى عليهم غير المهلب ، فقد خبرهم وعرف أساليبهم فى القتال ، ولم يجد مصعب بدًّا من تحقيق هذا المطلب فأمر المهلب بالعودة إلى قتال الأزارقة فولى إبراهيم ابن الأشتر مكانه فى الموصل وجهز المهلب جيشاً فى البصرة وتوجه للقاء الأزارقة ودارت بين الفريقين مناوشات استمرت ثمانية أشهر عند سولاف كان الفريقان يتواقفان خلالها ويتساءلون فيما بينهم عن أمر الدين وغير ذلك على أمان وسكون ، فكان عبيدة بن هلال يناديهم : ليخرج إلىّ بعضكم فيخرج إليه فتيان من العسكر فيقول لهم أيما أحب إليكم أقرأ عليكم القرآن أو أنشدكم الشعر فيقولون له أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك فأنشدنا ، فيقول لهم يا فسقة والله

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٣٦ .

قد علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن ثم لا يزال ينشدهم ويستنشدهم حتى يملوا ثم يفترقون[١] .

وقد وقعت فى هذه الأثناء وقعة مسكن بين مصعب وعبد الملك وانتصر فيها عبد الملك وقتل مصعب وهزم جيشه ، فبلغ الأزارقة مقتله قبل أن يبلغ المهلب وصحبه ، فاستغل الأزارقة الفرصة ليفضحوا انعدام الرأى السياسى لدى أهل البصرة فتواقفوا على الخندق ونادوا أهل البصرة « ما تقولون فى مصعب ؟ » قالوا « إمام هدى وهو والينا فى الدنيا والآخرة ونحن أولياؤه »، قالوا : «فما قولكم فى عبد الملك؟» قالوا : « ذاك ابن اللعين ، نحن إلى الله منه براء وهو عندنا أحل دما منكم » قال الأزارقة « فإن عبد الملك قتل مصعباً ونراكم ستجعلون غداً عبد الملك إمامكم ، وأنتم الآن تبرأون منه وتلعنون أباه » قال أهل البصرة : « كذبتم يا أعداء الله » فلما كان الغد تبين لهم قتل مصعب ، فبايع المهلب الناس لعبد الملك بن مروان ، وصدق تقدير الأزارقة لحقيقة خصومهم[٢] .

وبعد أن آل الأمر إلى عبد الملك تولى أمر الخوارج ولاة أمويون نحّوا المهلب ليظهروا هم . فولى البصرة خالد بن عبد الملك بن خالد بن أسيد الذى تولى بنفسه قتال الأزارقة وكانت النتيجة أن وضع جيشه فى موضع خطر عند نهر تيرى ولم ينقذه منه إلا يقظة المهلب ، وبعد ذلك عاد الخوارج إلى كرمان ورجع خالد إلى البصرة بعد أن ترك الجيش لأخيه عبد العزيز الذى تولى إمارة فارس مكان عمر بن عبيد الله بن معمر .

ونجح الأزارقة فى هزيمة عبد العزيز فى درابجرد شر هزيمة وألجأوه إلى أن ينجو بنفسه بعد أن فقد معظم جيشه وأسروا امرأته ابنة المنذر بن الجارود فأقيمت فى من يزيد حتى بلغت مائة ألف لجمالها الفائق ، مما أوغر صدر رجل من قومها كان من رءوس الخوارج ويدعى أبا الحديد الشنى فقال : تنحوا هكذا

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٥٦ ، والأغانى جـ ٦ ص ١٤٩ .

(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٧٣ .

ما أرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم ثم ضرب عنقها[١] .

وفى نفس الوقت كان أبو فديك النجدى قد هزم أمية أخا خالد فى البحرين ، فعمل أبو فديك متعاونا مع قطرى ، وتعقب الأزارقة الظافرون أهل البصرة الذين فروا أمامهم حتى بلغوا قنطرة أربك واستولوا على الأهواز من جديد وتقدموا حتى بلغوا فرات ميسان فى مواجهة البصرة . وهكذا عاد الموقف فى سنة ٧٣ الداخلة فى سنة ٧٤ هـ سيرته عام ٦٥ هـ يوم دولاب ، وكان المهلب فى حفنة من الرجال فلم يثبت أمام الأزارقة فلحق بالفارين إلى البصريين وهو يكتم سروره بالكارثة التى حلت بأمراء الأمويين الغلاظ التكبرين[٢] .

واضطر عبد الملك إلى عزل خالد وضم البصرة إلى أخيه بشر بن مروان والى الكوفة ، وأناط بالمهلب حرب الأزارقة وجعله مستقلا عن الوالى وفوضه كل الحقوق فى جمع الجند كما زوده بشر بجيش من أهل الكوفة عليه عبد الرحمن ابن أبى مخنف ولكنه أوعز إليه بأن يخالف أوامر المهلب وأن يفسد عليه رأيه كراهية من بشر للمهلب الذى عين مباشرة من قبل عبد الملك ، ولم يكن خاضعاً إلا له ، ولم يستمع عبد الرحمن لنصيحة بشر ، وصنع ما أملاه واجبه نحو قائده فانكشف الأزارقة أمام المهلب عن الفرات وتبعهم المهلب فرحلوا عبر دجيل إلى أن بلغوا الجبال . واستولى أهل البصرة والكوفة على موضع حصين عند رامهرمز ، وبعد أن أقاموا به عشرة أيام جاءهم الخبر بموت بشر فى البصرة فترك معظم البصريين والكوفيين مكانهم وانسلوا عائدين إلى ديارهم ، ومن العجيب أن الأزارقة لم ينتهزوا الفرصة .

وولى الحجاج أمر العراق سنة ٧٥ هـ بعد موت بشر ، وكان يثق بالمهلب ثقة عظيمة ، فكان أول ما فعله أن رد الفارين من أهل البصرة والكوفة إلى رامهرمز وجاء بنفسه إلى الميدان ، واستطاع المهلب بعد شهور قليلة أن يبدأ الهجوم ، وأن يجعل الأزارقة يفرون أمامه عائدين إلى فارس وتبعهم إلى أرجان ثم السروان

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ١٩٤

(٢) الخوارج والشيعة ص ١٠١

حتى كازون فى نواحى سابور فخندق على نفسه هناك مع أهل البصرة كما كان يفعل دائماً فى حروبه ، وكان أهل الكوفة أقل احتياطاً فعوقبوا على ذلك إذ هجم الأزارقة ذات ليلة فبيتوهم وقتلوا سبعين من خيرة قرائهم لولا أن نجح المهلب فى ردهم[١] واستمر القتال فى نواحى سابور واصطخر أكثر من عام ، وانسحب بعده الأزارقة من فارس وعادوا إلى كرمان التى كانت فى قبضتهم منذ زمن طويل ، وظل المهلب فى أثرهم يطاردهم حتى انتهوا إلى جيرفت ، وكان على المهلب أن يقضى ثمانية عشر شهراً حتى يقضى عليهم تماماً .

وقد ظن الحجاج أنه إنما يتعمد إطالة الحرب مع الخوارج حتى يحتفظ بالقيادة أطول مدة ممكنة ليستغل ذلك لنفسه ، فضغط الحجاج عليه ورفع منه إدارة إقليم فارس وجبايته لخراجه بعد أن طهره من الأزارقة ، ولكن المهلب لم يتأثر بهذا الإجراء حتى لا يخطئ السبيل ، إذ كانت خطته تعتمد على الترقب وانتظار الفرص[٢] . وقد جاءت الفرصة عند ما دب الخلاف بين الأزارقة إذ صنعوا بقطرى صنيع النجدات بنجدة . وراحوا يتعقبونه ويأخذون عليه مخالفات شرعية وكانوا أشداء عليه حين كان يثبت أمامهم ويدافع عمن ولاهم ولا يشايعهم فى أمور فألبوا عليه ولم يكونوا رهن إشارته أو إرادته وكانت نتيجة ذلك انقسام صفوفه ، وكان الموالى الذين أخذوا يتزايدون فى جيشه حتى بلغوا ثمانية آلاف ــ كان جمهورهم من القراء ــ أهم عناصر الشغب عليه بينما كان العرب من أخلص أتباعه ، وكان من وراء الموالى وتمردهم عبد ربه الصغير وهو أحد موالى قيس بن ثعلبة وأصله معلم كتّاب فبايعته طائفة من الخوارج الموالى[٣] وانضم إليه بعض العرب بزعامة عمرو القنا ونشبت الحرب بين فريقى الأزارقة واستمر القتال شهراً ، وهال الأمر صالح بن مخراق العبدى الذى

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٢٧٠

(٢) الأخبار الطوال ص ٢٨٤ — ٢٨٥

(٣) نهج البلاغة جـ ١ ص ٤٠٣

جمع جموعاً وتوجه إلى كل من الفريقين باللوم محذراً من الخلاف داعياً إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة فلم يجبه أحد فأغار بجموعه على السرح ومال إلى عبد ربه فحمل عليه فتى من أصحاب قطرى فطعنه فأنفذه[١] .

وآثر المهلب أن يعتصم بالهدوء حتى لا يكون هجومه عليهم سبباً فى لم شملهم واستطاع عبد ربه الصغير ومن معه من الموالى إخراج قطرى والعرب من جيرفت وخندق قطرى على باب المدينة وجعل يناوشهم ثم ارتحل بعد مدة إلى طبرستان فلم يعد أمام المهلب سوى الموالى بقيادة عبد ربه ، ونجح المهلب فى هزيمتهم والقضاء عليهم ، وبهذا أدى المهلب واجبه وعاد إلى البصرة فقوبل باحتفال كبير وكوفئ بولاية خراسان سنة ٧٨ هـ .

ووجه الحجاج جيشاً إلى قطرى بطبرستان بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبى ، وكان هذا الجيش وكل جنده من أهل الشام قد تمكن من القضاء على الخوارج الصفرية من أصحاب شبيب قبل ذلك بعام واحد . وقد ساعده فى التصدى لقطرى إسحق بن محمد بن الأشعث من أهل الكوفة وجعفر بن عبد الرحمن ابن أبى محنف بجيش من أهل الرى ، وسار هذا الحشد كله فى طلب قطرى حتى لحقوه فى شعب من شعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته إلى أسفل الشعب هاوياً فدق عظمه ورآه هناك علج من أهل البلد فحدر عليه حجراً عظيما من فوقه فأصاب إحدى رجليه فأوهنته ، وابتدره نفر من أهل الكوفة فقتلوه ، وأخذه أبوالجهم بن كنانة الكلبى فحز رأسه وقدم به على الحجاج ثم أتى عبد الملك فكافأه ، واتجه سفيان بعد ذلك إلى عبيدة بن هلال وكان قد تحصن فى قصر قومس فحاصره وقاتله أياما ثم دعاه إلى التسليم فرفض عبيدة أن يسلم فى قصيدة حزينة [٢] وتفشى الجوع فى من حوصروا بالقصر حتى جهدوا وأكلوا دوابهم[٣] ثم خرجوا

---

(١) شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٤٠١

(٢) الطبرى جـ ٧ ص ٢٧٥

(٣) نفس الموضع

يائسين للقاء سفيان فقاتلوه فقتلهم جميعاً وبعث برءوسهم إلى الحجاج .

وهكذا استؤصل الأزارقة من فوق وجه الأرض ولم يعد لهم من أثر يذكر فى الفكر أو فى العقائد إذ كانوا رجال عمل ولم يكونوا من أهل النظر .

وفى الوقت الذى كان الأزارقة يهددون فيه البصرة سنتى ٧٣ ، ٧٤ هـ . كان فريق آخر من الخوارج قد قدموا من نواحى الموصل يهددون الكوفة بزعامة رجل يدعى صالح بن مسرح وهو أحد بنى امرئ القيس ، وكان ناسكاً وصاحب عبادة وله أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين ويقص عليهم القصص ويدعوهم إلى مجاهدة أئمة الضلال[١] .

وكان صالح يعيش فى دارا بين نصيبين وماردين من أرض الجزيرة مما يلى الكوفة ، وكان أتباعه من بنى ربيعة الذين يسكنون هذه النواحى على جانبى الدجلة ، وعلى الأخص من بنى شيبان بن بكر الذين نزحوا من مواطنهم الأولى على الجانب الأيمن من نهر الفرات إلى صحارى الكوفة . وقد ظل صالح يعظ أصحابه ويدعوهم إلى الثأر للناس من مظالم الحكام ومقاومة أئمة الباطل ومن والاهم من الفاسقين ، ولكنه لم يتعجل العمل وظل يجتذب الأنصار ويربيهم تربية خاصة طوال عشرين عاماً ، ولكنه حمل حملا على الخروج فتواعد وأصحابه أن يخرجوا فى هلال صفر سنة ٧٦ هـ واجتمع إليه من أصحابه جماعة قليلة العدد لا تتجاوز مائة وعشرين رجلا كان عليهم أن يبدأو بالهجوم على دواب الحاكم فى رستاق دارا لكى تكون لهم خيول ، وأقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة تحصن منهم أهلها وأهل نصيبين وسنجار واستغاثوا بوالى الجزيرة آنذاك محمد بن مروان فأنفذ إلى صالح ورجاله كتيبة من ألف قيسى ، ولكن صالحاً ورفاقه فاجأوها فى سوق دوغان وأفرادها يصلون الضحى فلم يشعروا إلا والخيل طالعة عليهم فتفرقوا وانهزموا ، ثم التقى الفريقان مرة أخرى فى آمد على الشاطئ الأيسر من الدجلة فكان قتال مرير لم يصبر عليه الخوارج فدخلوا أرض الجزيرة واندفعوا ناحية الكوفة ، وهناك وقعوا فى دائرة نفوذ الحجاج

---

(١) شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٤٠٩

الذى أرسل إليهم جيشاً كوفياً من ثلاثة آلاف بقيادة الحارث بن عميرة الهمدانى والتقى الجمعان فى قرية يقال لها المذبح من أرض الموصل على تخوم أرض جوخى فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٧٦ هـ وهزم الخوارج وأثبتت الجراحات صالحاً وقتل[١] .

وقد مجد الخوارج ذكرى صالح تمجيداً بالغاً ولكن موته لم يكن ليمثل بالنسبة إليهم خسارة فادحة إذ بايعوا من بعده أبا الصحارى شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى ، وكان رجل كفاح وشجاعة فتولى قيادة فلّ صالح وكان عددهم لا يتجاوز سبعين رجلا وزحف بهم فى اتجاه الموصل فيما يعرف بأرض الجبال ، وهناك كان بمأمن من أهل الكوفة واستطاع شبيب أن يفزع قبيلتى شيبان وعنزة ومضى فاحتمل أمه ومضى بها إلى المدائن فى مائة وستين رجلا ، واتخذ من أرض جوخى وهى الأرض العتيقة للخوارج الأقدمين مسرحاً لعمله وهى أرض تقع بين الدجلة والجبل عند النهروان من نواحى الكوفة وينتشر فيها عدد من أديرة النصارى وهى بمثابة نقط ارتكاز ملائمة للمحاربين الذين يعتمدون على المراوغة لقلة أعدادهم ، ومن ثم لم يكن لشبيب مركز دائم أو ثابت يخرج منه للقتال ، وإنما كان يغير مقامه باستمرار حتى تهيأت له الفرصة للانتقام لهزيمة المذبح والثأر لزعيمه صالح بن مسرح فهزم جيشاً للحكومة مرتين فى خانقين وفى النهروان[٢] ، ومضى شبيب فى أرض جوخى نحو تكريت فخافه جند الكوفة فى المدائن ، وولوا هاربين إلى الكوفة ، وعندئذ بعث الحجاج جيشاً قوامه أربعة آلاف رجل إلى المدائن بقيادة الجزل بن سعيد الذى راح يحاكى خطط المهلب فى المطاولة والاحتياط والحذر والخندقة والتحصن بالليل ومضى على ذلك شهران ، ولما يهاجم الخوارج حتى نفذ صبر الحجاج فعزله ، وولى مكانه سعيد بن المجالد الهمدانى وأمره بأن يزاحف الخوارج دون مطاولة وأن يطلبهم طلب السبع وأن يحيد عنهم حيدان الضبع[٣] .

---

(١) الطبرى : جـ ٧ ص ٢١٧

(٢) الطبرى : جـ ٧ ص ٢٢١

(٣) الطبرى : جـ ٧ ص ٣٣٤

وكان شبيب قد نزل قطيطيًا براذ الروذ ودخلها ، وأمر دهاقها بأن يصلح لهم غذاء ففعل وأغلق الباب ، فلم يفرغ من الغذاء حتى أتاه سعيد بن المجالد فى هذا المكان ، وكان الدهقان قد صعد إلى السور فنظر جند سعيد مقبلين فنزل متغير اللون فسأله شبيب عن أمره فأخبره بمجىء الجند فأكمل شبيب غذاءه هادئاً ، ثم عمد إلى بغلته فركبها ، وتصدى لسعيد فحمل عليه فى باب المدينة صائحاً « لا حكم إلا لله الحكم الحكيم » ففرق شمل جنده ، وعاد سعيد يجمع جنده وجعل يلف الفرسان فى أثره متقطعين ، ولف شبيب خيله كلها ثم جمعها وقال لرفاقه استعرضوهم استعراضاً وانظروا إلى أميرهم فوالله لأقتلنه أو يقتلنى ، وحمل عليهم مستعرضاً فهزمهم وثبت سعيد ونادى فى أصحابه وأخذ قلنسوته فوضعها على قربوس سرجه وحمل عليه شبيب فعمه بالسيف فخالط السيف دماغه وخر صريعاً ، وتولى الجزل فلّ الجيش وقاتل قتالا شديداً حتى حمل من بين القتلى إلى المدائن مثخناً بالجراح وبعث إليه الحجاج بطبيبه الخاص .

ومضى شبيب يزحف حتى قطع الدجلة عند الكرخ ، وبعث إلى سوق بغداد فأمن أهله وأخذ بصحبه الطريق إلى الكوفة ، وفى طريقه مزق جيشاً اعترضه وعبر الفرات إلى خفان واللصف فى البادية يقتل البدو فى طريقه حتى مضى إلى مكان بعيد ، ووهم الحجاج أن الجو قد خلا لقتاله فخرج ليلقاه فى البصرة، وفى البصرة تلقى الحجاج نبأ عودة شبيب إلى أطراف الكوفة للقتال فعاد على وجهه ، وفى مساء اليوم الذى عاد فيه الحجاج إلى الكوفة ظهر شبيب أمامها فى مائتى فارس وانتظر إلى الليل ثم دخل وأصحابه إلى الكوفة فانتهوا إلى السوق وشدوا حتى ضربوا باب القصر ، وضرب شبيب الباب بعموده ضربة أثرت فيه وكان أثرها لا يزال يرى بعد ذلك بمدة طويلة وأتاح شبيب لزوجه غزالة أن تصلى ركعتين بمسجد الكوفة كما كانت قد نذرت[١] .

وفى الصباح لم يكن لشبيب أثر فى الكوفة فبعث الحجاج فى أثره زائدة

---

(١) الأغانى : ج ١٦ ص ١٥٥ .

ابن قدامة الثقفى ، ولكنه لم يعثر له على أثر إذ سار فى طريق منحن ثم إذا هو يظهر فجأة فى القادسية من الناحية الأخرى من الكوفة وكان طريقه إليها مفتوحاً ولكنه آثر أن يهاجم زائدة بن قدامة الذى عسكر عند رذ بار ونجح هذا الهجوم الخاطف وقتل زائدة وأبيد شطر كبير من جنده، وآثر شبيب ألايدخل الكوفة على الرغم من حث أصحابه له على ذلك ، وسار شبيب حتى بلغ خانجار فأقام بها ، وكان فى مسيره ينهب دور المال فضيع على الحجاج خراج مناطق واسعة . وهال الحجاج أمره فبعث إليه بجيش من أهل الكوفة بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى ، وأتى عبد الرحمن المدائن فلقى الجزل سلفه فأوصاه بخطة فى القتال وعاها ، وخرج بالناس نحو شبيب فلما دنا منه ارتفع عنه شبيب إلى دقوقاء وشهرروز ، ومضى عبد الرحمن يجد فى طلبه ولكن شبيباً ترك منطقة المدائن كلها ، وكان الحجاج قد فوض عبد الرحمن أن يسلك فى أثره أين سلك فسار فى أثره حتى وصل نهرحولايا على تخوم الموصل وسواد الكوفة. وكانت خطة شبيب أن يرهق مطارديه فى الطرق الوعرة ، ولم يطق الحجاج صبراً فعزل عبد الرحمن وأحل محله عثمان بن قطن الحارثى . وفى العاشر من ذى الحجة سنة ٧٦ هـ نشب القتال بينه وبين شبيب فهزم عثمان وقتل ، وعاد عبد الرحمن بالفلول المنهزمة إلى دير أبى مريم ومن ثم إلى الكوفة .

وفى شتاء سنة ٧٦ هـ قام شبيب ببعض الغارات ، ولكى يستجم وأصحابه أتوا جبال الماه بهراذان فى مستهل سنة ٧٧ هـ فصيفوا بها ثلاثة أشهر ، وانضم إليهم أناس كثيرون ممن كان الحجاج يطلبهم بمال أو ثارات . فلما انفسح الحر أقبل شبيب نحو المدائن وعليها مطرف بن المغيرة بن شعبة فتركها له إذ كان ذا ميول خارجية ولم يشأ أن يكون تحت إمرته كما لم يشأ أن يقاتله[١] .

وباستيلاء شبيب على المدائن احتل مركزاً منيعاً وإن لم يستفد منه كثيراً ، وقد كان الحجاج أعد جيشاً عظيماً بقيادة عتاب بن ورقاء وتحرك هذا الجيش جنوب غربى الدجلة ، ولكن شبيباً فاجأه فى ستمائة رجل فلم يثبت أمامه أحد ، وقتل أمراء الجند وفيهم عتاب وولى الجيش الأدبار ثم لقى شبيب جيشاً آخر وهزمه

(١) الخوارج والشيعة ص ١١٩

ثم قطع الجسر وعسكر دون الكوفة وأقام عسكره مدة طويلة هناك وبنى مسجداً فى تلك البقعة .

ولم يجد الحجاج بدًّا من أن يطلب جيشًا شاميًّا فأتاه سفيان بن الأبرد الكلبى فى أربعة آلاف رجل فى الوقت المناسب فخرجوا إلى سبخة الكوفة للقاء الخوارج واحتدم القتال والحجاج يشرف عليه من مكان مرتفع ودافع أهل الشام الخوارج خطوة خطوة ، وحمل خالد بن عتاب بن ورقاء الذى قتل الخوارج أباه فى عصابة من أهل الكوفة حتى دخل عسكرهم من ورائهم فقتلت غزالة امرأة شبيب بيد رجل يدعى فروة بن الدفان الكلبى ، وأتى الخبر الحجاج وشبيبا ، فكبر الحجاج وأصحابه تكبيرة واحدة ووثب شبيب ورجاله على خيولهم وفروا عابرين فوق جسر الفرات وتخلف شبيب حتى كان آخر العائدين وجعل يخفق برأسه غير مكترث وهو يفكر طويلا ولم يجد معه تنبيه رفاقه له بأن أهل الشام يتعقبونه والتفت غير مكترث ثم عاد يخفق برأسه فبعث الحجاج إلى خيله أن دعوه فى حرق الله وناره فتركه أهل الشام ورجعوا .

وخاض شبيب بعد هذه الهزيمة معركة فى الأنبار ثم انسحب فى بقية من فرسانه بعد أن تخلى عنه جل جيشه قاصداً أرض جوخى ، ولم يستقر به المقام طويلا هناك فقد كان قرر أن يرحل إلى كرمان حيث الأزارقة لم يزالوا أقوياء فعبر دجيل عند الأهواز ، ولكن سفيان بن الأبرد أقبل عليه فى الطريق فعبر إليه شبيب ثانية وصمد أهل الشام لهجوم شبيب فعاد إلى مكانه بعد أن زاحفهم ثلاثين زحفا ، وجاء دور أهل الشام ليزاحفوه وكان شبيب قد انتهى إلى الجسر فنزل ونزل معه مائة رجل واستمر القتال وعاد شبيب وأصحابه وقد تخلف فى آخرهم فأقبل على فرسه التى فزعت فزل حافرها على حرف السفينة فسقط فى الماء ولم يستطع أن يسبح لثقل سلاحه فارتمس فى الماء ثم ارتفع فقال ذلك تقدير العزيز العليم .

وانتهت بذلك قصة رائعة من قصص البطولة النادرة ، ولولا أن دخلت عناصر الخيانة والخلاف بين رفاقه الذين امتلأ قلبهم عليه بالحسد والضغينة

لما انتهى شبيب على هذه الصورة .

وقد أراد أحد رفاقه ويدعى مصقلة بن مهلهل الضبي أن يستأثر دونه بزعامة الصفرية فتوسل إلى القضاء على سلطانه بواسطة سلطان صالح بن مسرح زعيمهم الأول فتولاه وأنكر على شبيب وشغب عليه وفارقه وبقية رجاله فى أحرج المواقف والحجاج ينظر ، فتركوه فى أربعين فارسا ، وتذهب بعض الروايات إلى أن بعض أنصاره من الشاغبين عليه كانوا سبب كارثة النهر وأنهم قطعوا الحبال أثناء عبوره ، وكان بعض رفاقه يتلومونه لاعتداده بالتقية ولتساهله مع الأسرى إذ كان يطلق كل من يقر بألا حكم إلا لله .

وبعد موت شبيب لم تعد عصابته بذات أهمية ولكن حركة الخوارج ظلت قوية فى الموصل ونواحيه من بنى شيبان وسائر آل بكر وقامت لهم حركات من حين إلى آخر ، وظلوا يرون فى صالح بن مسرح قديسهم ووليهم يتعظون بمواعظه المجموعة ويزورون قبره ويحلقون عنده تكبيراً[١] .

ولم يكن الصفرية قساة كالأزارقة ولكن رقتهم على الرغم من ذلك لم تكن تدوم إلا بقدر ما يدوم الوفاق بينهم وبين جماعة المسلمين ثم تأخذ بهم الشدة مأخذها حينما يخرجون فيمتشقون السيوف . والخلاف بين الصفرية والأزارقة لا يدل على شيء ذى بال فى الواقع العملى ، فالصفرية كما توصف أحوالهم فى القتال تحت إمرة شبيب إنما يمثلون فى حقيقة الأمر النموذج التقليدى العام للخوارج[٢]

وقد خفت صوت الصفرية خلال عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان فلما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة خرج رجل من بنى يشكر يدعى شوذبا ومعه فرسان من بنى شيبان ويشكر ، وكان عمر محبًّا للسلم وجمع الكلمة ، فلم يشأ أن يأخذ الخوارج بالشدة وأراد أن يعاملهم باللين ويقارعهم بالحجة فأرسل إلى شوذب رسالة يقول فيها « بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست أولى بذلك منى فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ،

---

(١) المعارف / ص ٢٠٩

(٢) الخوارج والشيعة / ص ١٢٩

وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا » فكتب شوذب إليه « قد أنصفت وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » . وكان عمر يرمى بهذا إلى إزالة الخلاف بين الفريقين عن طريق الإقناع بالحجة والبرهان ، ولم ير وقد عرف عنه كراهيته للدماء أن يسلك معهم مسلك عمه عبد الملك ، وقد أثمرت سياسته ، فقد شهد أحد هذين الخارجين بأن عمر على صواب وقال : « ما سمعت كاليوم حجة قط أبين وأقرب مأخذاً من حجتك ، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا برىء ممن برئ منك » فقال عمر للرسول الآخر : فأنت ما تقول ؟ قال : ما أحسن ما قلت وأبين ما وصفت ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض عليهم قولك فانظر ما حجتهم ثم مضى أحد الرسولين إلى شوذب ليطلعه على ما دار فى المناظرة ولكن المنية ما لبثت أن عاجلت عمر[١] .

وقد كان لهذه المعاملة الطيبة أثرها فى الخوارج الذين نصبوا أنفسهم فى بلاد العراق والجزيرة منذ خلافة عمر بن العزيز حماة للضعفاء والمضطهدين وحرباً على المستبدين والظالمين ، ولذلك لا نعجب إذا أمد هؤلاء الخوارج إخوانهم البربر من الصفرية بالسلاح فاستعانوا به على قتال ولاتهم فى تلك البلاد ، ونصبوا عليهم رجلا اسمه ميسرة سنة ١٢٢ هـ ، فخوطب فى طنجة باسم أمير المؤمنين والأمويون فى أوج سلطانهم . وقد اتخذ شوذب مركز قيادته فى أرض جوخى فهزم أهل الكوفة وبنى قيس الحرانين .

وفى أيام هشام خرج من الموصل بهلول بن بشر وهو جندى أرسل فى شراء خل فجاءه نبيذ ولم يستطع أن يحمل البائع على استبداله كما لم يستطع أن ينال من الموظف الذى شكا إليه جواباً عن شكايته ، فكان ذلك مدعاة لإثارة حفيظته فكون عصابة وبدأ بقتل ذلك الموظف الذى لم يستجب لشكواه ، وقد أرسل إليه خالد القسرى جيشين فحاصرهما ، ولكنه هزم فى معركة الكحيل قرب الموصل ، وفى نفس الوقت هجم الصحارى بن شبيب فى ثلاثين رجلا من آل بكر فى جبل من سهل الدجلة على أرض خالد ،

---

(١) انظر مروج الذهب : ج ٣ ص ١٣٠ — ١٣١

ولكنه لم يفلح فهرب عبر نهر دجلة وقتل . ثم اتخذت حركة الخوارج أسلوباً مختلفاً عما مضى لما أن بدت الدولة الأموية تتداعى . وقد أخذت حركة الخوارج صورة الثورة الشاملة فبعد أن كانت قلة العدد هى السمة التى تميز جيوشهم صاروا يقاتلون فى جموع حاشدة فبعد أن اغتيل الوليد الثانى ثار سعيد بن بحدل الشيبانى فى العراق وزحف بمن معه فاعترضه بسطام البيهسى فى بنى ربيعة فقضى عليه ثم قصد الكوفة ، ولكنه قضى نحبه فى الطريق بعد إصابته بالطاعون ، وخلفه الضحاك بن قيس الشيبانى الذى انضوى تحت لوائه عدة آلاف كما انضم إليه صفرية شهروز الذين استولوا على أرمينية فأذربيجان ونازعوا مروان بن محمد السلطان ، وحرصوا على أن يكون لهم إمامهم الخاص فى الصلاة وكان بينهم كثير من النسوة اتخذن أسلحة الرجال وقاتلن قتالا مجيداً . وعلى الرغم من النزاع بين الوالى القديم للكوفة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والنضر بن سعيد الحرشى واليها الجديد من قبل مروان بن محمد فإنهما اضطرا إلى الصلح عندما هددهما معاً خطر الخوارج الذين ظهروا على المسرح فى جماهير ضخمة لأنهم تركوا ما كانوا عليه من تشدد فسمحوا بانضمام كل من ينحاز إليهم بأن يقول مقالتهم ولم يطردوا حليفاً أراد أن يقاتل فى صفهم .

ولم يستطع الواليان المتحالفان ضد الضحاك أن يقفا فى وجهه فانهزما أمامه فى رجب سنة ١٢٧ هـ أقبح هزيمة وأخليا الكوفة وتوجه الحرشى إلى مروان فى الشام بينما لحق ابن عمر بواسط فى أثر أصحابه الكلبيين ، وفى شعبان سنة ١٢٧هـ اتبعه الضحاك وحاصره هناك ، وقد تميز فى قتال الخوارج منصور بن جهور لما رأى الخوارج يقاتلون كالأسود عند أشبالها ، وقد هرب جند ابن عمر وجند الحرشى أمام شدة بأسهم ورأى ألا أمل فى قهرهم فكر فى أن يترضاهم وأن يجعل بأسهم على مروان بن محمد فانحاز منصور إليهم فناداهم إنى جانح أريد أن أسلم وأسمع كلام الله فقبلوه وبايعهم وقبل مقالتهم وفى أواخر سنة ١٢٧ هـ سلم لهم ابن عمر أيضاً بعد تردد طويل ودخل فى طاعة الضحاك وصلى خلفه مما جعل بعض الشعراء يتندر بذلك ويعجب من صلاة أحد بنى أمية

خلف الخوارج ، ولم يأنف ابن عمر من ذلك كما لم يأنف أن يكون والياً للخوارج على كسكر وميسان ودستميسان وكور دجلة والأهواز وفارس على أن يبقى فى واسط .

وعاد الضحاك إلى الكوفة وصار يحكم منها النصف الغربى من دولته ، ورجع إلى موطنه فى أرض الجزيرة بعد عشرين شهراً بينما كان مروان مشغولا تماما فى الشام ، واستولى الضحاك هناك على الموصل وأخرج منها عاملها وأصبح له جيش هائل يضم مهاجرة كلب ومغامريهم ، كما انضم إليه سليمان بن هشام ابن عبد الملك بعد أن أنقذ فرقته المعروفة بالذكوانية من الهزيمة يوم خساف أمام مروان وكان قوامها أربعة آلاف وبهذا كله صار جيش الضحاك نحواً من مائة وعشرين ألفا .

وبينما كان مروان مشتغلا بحصار حمص كلف ابنه عبد الله وكان قد تركه وراءه والياً على أرض الجزيرة أن يخرج إلى نصيبين ليشغل الضحاك ، فسار عبد الله إلى هناك ولكنه بعد قتال يسير تقهقر أمام كثرة جند الضحاك إلى ما وراء أسوار المدينة وحوصر هناك ، ولكن الضحاك أخفق فى الاستيلاء على حصن الرقة على الفرات ، وفى هذه الأثناء كان مروان قد فرغ من حصار حمص فأقبل بنفسه إلى الرقة لمواجهة الضحاك والتقى الجمعان عند كفر توثا فقتل الضحاك فى اليوم الأول للمعركة بعد أن أحدقت به خيل مروان فألحت عليه هو وأصحابه حتى قتلتهم عند العتمة ولم يكن يعلم بمقتله أحد ، وأرسل مروان يبحث عنه فى ضوء المشاعل فوجدوه قد طعن فى وجهه بأكثر من عشرين طعنة[١] .

وتولى قيادة الخوارج بعده رجل من بنى شيبان اسمه الخبيرى فعاود الهجوم من بعد غده وتقدم حتى اقتحم معسكر الأمويين ففر مروان فى قلب جيشه ووصل الخبيرى إلى حجرة مروان ، وجلس على فرشه ولكن تكاثر عليه عبيد من أهل العسكر فضربوه بعمد الخيمة حتى قتلوه آخر سنة ١٢٨ هـ — وكان

---

(١) انظر ابن الأثير / جـ ٥ ص ١٣٥ — ١٤١

جيش الصفرية قد بلغ أربعة آلاف فولوا عليهم أبا دلف الشيبانى وأشار عليهم سليمان بن هشام بن عبد الملك بأن يرجعوا إلى الضفة الشرقية من نهر دجلة بإزاء الموصل ، وكانت الموصل لا تزال بأيديهم فكانوا يعبرون إليها على جسر من المراكب ، ولكن مروان عسكر قبالتهم على الضفة اليمنى ، وقضى أشهراً طويلة سنة ١٢٩ هـ من غير أن يصل أيهما إلى انتصار حاسم ولم يتزحزح الخوارج عن موقفهم هناك إلا بعد أن فقدوا سيادتهم على العراق وانتزع ابن هبيرة الكوفة من المثنى بن عمران والى الخوارج ، وبعد أن استولى على واسط وأسر ابن عمر وفر منصرر مع الكلبيين إلى عبد الله بن معاوية ، فعند ذلك لم يستطيعوا أن يصدوا الجيش الذى أرسله إليهم ابن هبيرة بقيادة عامر بن ضبارة ونباتة بن حنظلة ، وكان هذا الجيش قد أقبل مسرعاً من جهة الكوفة لنجدة مروان بن محمد وفكر الخوارج كى لا يقعوا بين نارين فتخلوا عن مركزهم بإزاء الموصل فى آخر سنة ١٢٩ هـ واجتازوا الجبال قاصدين جهة الشرق إلى الأهواز وفارس مارين بحلوان ، وهناك انضموا إلى عبد الله بن معاوية الذى كان شأنه قد ارتفع فى ذلك الحين لانضمام أعداء بنى أمية جميعاً إليه ، وقد طاردهم مروان إلى هناك فتفرقوا . ومضى سليمان ومن معه فعبروا البحر إلى السند أما أبو دلف فقد مضى إلى الساحل الشرقى لبلاد العرب وقتل أثناء قتاله مع أمير عمان من بنى جلندى سنة ١٣٤ هـ .

وفى جنوب الجزيرة العربية كانت آخر حركات الخوارج فى العصر الأموى وهى وإن كانت قليلة الأهمية من الناحية السياسية فإنها كانت أقرب إلى مذهب الخوارج بالنسبة لحركة الصفرية التى سمحت لغير الخوارج بالانضمام إليها والتحالف معها تمشياً مع المبدأ القائل من ليس ضدنا فهو معنا .

أما هؤلاء فقد حافظوا على روح الخوارج المستقلة ، ويعرف هؤلاء الخوارج بالأباضية نسبة إلى عبد الله بن أباض التميمى . وعلى الرغم مما يقال من أنه كان قد رجع عن القول بمقالة الخوارج وتبرأ منه أصحابه فقد استمرت نسبتهم

إليه[١] وقد عاش الأباضيون فى أكثر الأحوال مسالمين للدولة فى البصرة منذ بداية النصف الثانى من القرن الأول ، وكان أباضية البصرة قد بذروا بذورهم فى جنوب الجزيرة العربية وقد علمتهم التجربة أن يستغلوا موسم الحج فى مكة لنشر مبادئهم .

وكانت أولى حركاتهم خروج عباد الرعينى فى اليمن محكما سنة ١٠٧ هـ ، ثم خرج بعد ذلك عبد الله بن يحيى الكندى أحد بنى شيطان فى حضر موت أيام مروان بن محمد ، وكان عبد الله أول أمره داعية للأباضية ورفيقاً لابن أباض فى جميع أحواله وأقواله[٢] وكان هدفه أن ينتقص على جور الحكام وقد شجعه أباضية البصرة على الخروج ، وأقبل إليه من هناك أعضاء بارزون من الأباضية من بينهم بلج بن عقبة بن الهيصم الأسدى وأبو حمزة المختار ابن عوف الأزدى الذى صار يده اليمنى ، وكان فى الواقع أهم من عبد الله نفسه ، وكان أبو حمزة يفد إلى مكة مرة فى كل سنة لإثارة الناس على بنى أمية وحثهم على القتال ، وبلغ من تفاقم خطره أنه جاء إلى عبد الله بن يحيى سنة ١٢٨هـ وقال له « اسمع كلاماً حسناً إنى أراك تدعو إلى حق فانطلق معى فإنى رجل مطاع فى قومى » فخرج معه حتى أتيا حضر موت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى قتال مروان بن محمد تحت رايته[٣] .

وفى بداية سنة ١٢٩ هـ بويع عبد الله بن يحيى خليفة للأباضية ولقب بطالب الحق بينما لقبه أعداؤه بالأعور ، ولعل ذلك كان لأنها علامة الدجال وهم كانوا ينظرون إليه كذلك[٤] . وقد أعلن عبد الله دعوته فى حضر موت وبعد أن تمت له السيطرة عليها زحف على اليمن وتوقف بحملته فى العاصمة صنعاء فى النصف الثانى من سنة ١٢٩ هـ[٥] .

---

(١) المعارف / ص ٢٠٥ ، لسان الميزان / ج ٣ / ص ٢٤٨
(٢) الملل والنحل / ج ١ / ص ٢١٢
(٣) ابن الأثير / ج ٥ / ص ١٣٥
(٤) الأغانى / ج ٢٠ / ص ١٠٨
(٥) الأغانى / ج ٢٠ / ص ٩٧ — ٩٨

وأقام حكمه هناك مبقياً على العمال فى وظائفهم مظهراً لين الجانب فاستطاع أن يمتلك قلوب أهل اليمن مؤكداً ألا خلافاً جوهرياً هناك بين مذهبه ومذهب أهل السنة والجماعة ، ولكنه اشتد على أهل الكبائر التى نص القرآن عليها إذ اتخذ القرآن إماما ودعا إليه وإلى سنة النبى صلى الله عليه وسلم فمن زنى فهو كافر ومن سرق فهو كافر ومن شرب الخمر فهو كافر ومن شك فى أنه كافر فهو كافر[١].

وكان ارتكاب هذه الكبائر شائعاً فى ذلك الحين وانضم إليه كثير من الخوارج جاءوه من مختلف الأصقاع فقد كانت دولة بنى أمية فى طريقها إلى السقوط ولم تعد الخلافات الدقيقة بين فرق الخوارج لتحول دون اجتماع شملهم على فكرة عامة ضد العدو المضمحل .

وفى موسم الحج لسنة ١٢٩ هـ بعث عبد الله جيشاً إلى مكة بقيادة أبى حمزة قوامه ألف رجل تقريباً ، وكان فيه عدد كبير من اليمانيين البارزين يضعون العمائم السرد والحمر[٢] . وكان أمير الحج فى ذلك العام عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك والى المدينة فلم يتعرض لأبى حمزة وعقد معه هدنة طوال الحج ثم عاد إلى المدينة ومن هناك أرسل جيشا إلى أبى حمزة بقيادة عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر بن عثمان الأموى ، وكان هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف رجل كانوا كالدهماء وليس عليهم سيما المقاتلين ، فقد كان فيهم كثير من القرشيين فى ثيابهم الفاخرة وقد ظنوا أن الأمر لن يعدو أن يكون مجرد نزهة وبخاصة فتيان الأمويين منهم وكان منهم بالمدينة عدد كبير يظهرون الكبر والعجرفة فى حديثهم عن الخوارج وتصورهم خشارة من الرعاع ، ولما بلغ عبد العزيز العقيق جاءته رسل أبى حمزة يقولون : « إننا والله ما لنا بقتالكم حاجة ، دعونا نمضى إلى عدونا » فأبى ذلك عليهم وأصر على الحرب وسار حتى نزل قديداً وزحف أبو حمزة ضد هذا الجيش والتقى الجمعان هناك فى

---

(١) الأغانى / ج ٢٠ / ص ٩٩

(٢) الأغانى / ج ٢٠ / ص ٩٩

التاسع من صفر سنة ١٣٠ هـ[١] . وحاول أبو حمزة أن يفاوضهم وأن يقنعهم بأن قضية الخوارج هى قضية أهل المدينة فى مقاومة جور بنى أمية ، وآثر ألا يبدأ الهجوم حتى هوجم بالفعل وأصيب أحد رجاله بسهم فرأى آنذاك أن قتالهم لا مفر منه فوثب على جيش المدينة وثبة نكراء اضطر معها أهل المدينة إلى الفرار ، ولم يرض أبو حمزة أن يطارد الفارين ولم يرحم القرشيين إذ عدهم ممثلى الحكومة الكافرة حتى امتلأ الميدان بجثثهم ومن بينهم حفيد عثمان بن عفان قائد الجيش ، وكان نصيب الأسرى الذين لم يرجعوا عن مذهبهم القتل ؛ وكانت وقعة قديد بمثابة مذبحة للغطرسة القرشية والأموية بالذات ، وانفتح الطريق أمام أبى حمزة إلى المدينة فدخلها فى الثالث عشر من صفر سنة ١٣٠هـ دون قتال بعد أن فرّ عنها واليها عبد الواحد بن سليمان ، وظل أبو حمزة فى المدينة ثلاثة أشهر أحسن السيرة خلالها فى أهلها ، وألقى من فوق منبر الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته الشهيرة فعرّف بالخوارج ورد على من عابهم وصور بالأمثلة الصارخة مدى التفاوت البعيد بين حكومة العصر وبين نموذج الحكم الإسلامى كما رسمه الرسول والشيخان[٢] ، إذ كان رسول الله لا يتقدم إلى أمر إلا بأمر الله ولا يحجم عن أمر إلا عن أمر الله وعمل أبو بكر بالكتاب والسنة فقاتل أهل الردة وشمر فى أمر الله ، وسار عمر سيرة صاحبه من العمل بالكتاب والسنة فجند الأجناد ومصر الأمصار ، ولكن حبل الدين اضطرب فى أخريات عهد عثمان فأحبط فى الست الأواخر ما قدم فى الست الأوائل ، ولم يبلغ علىّ من الحق قصداً ، أما معاوية فلعين ابن لعين وجلف وسفاك وجائر وباغ على الدين ومحل للحرام وأما يزيد فخمار ماجن عابث فاسق ومروان طريد ولعين وفاسق ثم تداول بنو مروان بعد آل سفيان وهم طرداء وطلقاء ، وآكلو أموال الله متلاعبون بالدين جائرون مستخفون بكتاب الله ، أما عمر الثانى فبلغ ولم يكد وعجز عما

---

(١) الأغانى / ج ٢٠ / ص ١٠١ ٤ ، ابن الأثير / ج ٥ / ص ١٤١

(٢) انظر الخطبة فى الأغانى / ج ٢٠/ ص ١٠٤ ، البيان والتبيين ج ٢ / ص ٦١ ، شرح نهج البلاغة / ج ١ / ص ٤٥٩

أظهر وأما يزيد فضعيف سفيه ، وأما الشيعة فتظاهرت بكتاب الله وأعلنت الفرية على الله فجعلوا دينهم تعصباً بحزب لزموه وأطاعوه ينتظرون رجعة المولى ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ويدعون علم الغيب لمخلوق ، وساءل أهل المدينة أى هؤلاء يرضون لحكمهم ؟ ثم قدم أصحابه رداً على من عابهم لشبابهم وحداثة سنهم وغلظتهم وجفائهم بأنهم شباب مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم وأشاد بتقواهم وصلاحهم وعبادتهم وشجاعتهم ، ورسم صوراً مثيرة لجهادهم واستشهادهم فى سبيل الله . وهو بهذا إنما يهدف إلى إفهام أهل المدينة أن الماضى كله ليس فى صالح بنى أمية وأن الخوارج هم الذين يستطيعون أن يحققوا النموذج السليم للحكم كما صوره النبى وخليفتاه ، ولكن أهل المدينة لم يعطوا أبا حمزة التأييد ضد بنى أمية رغم مقارناته بينهم وبين آبائهم الذين آووا النبى ونصروه من أذى قريش ولم يكن معه إلا بعض الشباب مثل هؤلاء الذى يعيبون عليهم من رفاقه كما كان يفعل أهل مكة مع الرسول .

وكان هذا الكلام يستهوى أفئدة السامعين إلى حين ، ولكن لا يستهويها أبداً ، وبخاصة فى مجتمع المدينة اللاهى المتحضر فى ذلك الوقت ، تشدد أبى حمزة فى رعاية القيم الأخلاقية والدينية « فمن زعم أن الله يكلفنا مالا طاقة لنا به فهو عدو الله » وتشدد فى أمر الزنا وشرب الخمر وأظهر الإعجاب بعمر بن الخطاب لإقامة حدها فى ثمانى عشر مرة دون اعتبار لشخص الشارب .

وعلى الرغم من إحساس أهل المدينة بعدالة هذا الحكم وصلاحه ، فإنهم لم يتجاوبوا معه لهذا السبب ، ولكنه كسب بعض الأنصار المؤمنين من أمثال عبد العزيز بن بشكست القارئ ، وأبى بكر بن محمد بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب . وفى مستهل جمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ ، زحف جيش شامى مكون من أربعة آلاف من القيسيين بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية من سعد هوازن فى طريقه إلى المدينة ، وكما حدث فى عهد يزيد الأول دفع لهم أجر مناسب بمثابة كفارة عما ينتظرهم من انتهاك الحرمات المقدسة إذ أعطى كل منهم مائة دينار ذهبى وفرساً وبغلا . وكان الخوارج قد شعروا بهذا الجيش

فخرجوا ينتظرونه فى وادى القرى وهناك التقوا فى معركة فاصلة قتل فيها كثير من الخوارج من أصحاب أبى حمزة ونجا هو فى ثلاثين من خاصته هربوا إلى مكة وبلغ ابن عطية المدينة فوجدها خالية من الخوارج بعد أن قضى أهل المدينة على بقيتهم الباقية التى قادها المفضل وقتلوا بشكست وغيره بعد أن عرفوا نتيجة المعركة[١] وأقام أبو حمزة يدافع عن مكة ولكنه لم يحتط لنفسه من غدر أهلها وكانت مقاومته عبثا ، إذ انتصر ابن عطية مرة أخرى واستمر القتل فى الأسرى وصلب زعماء الأباضية ومنهم أبو حمزة ، وبعد أن أقام مدة طويلة فى الطائف زحف إلى صنعاء حيث لقى عبد الله بن يحيى الكندى طالب الحق وهزمه وقتله واستولى على عاصمته بعد أن حاصرها ، ثم سيطر على حضر موت وحمل رأس طالب الحق إلى مروان بن محمد بالشام بأسرع ما استطاع ورجع إلى صنعاء لأن مروان قد ولاه إمارة الحج ذلك الموسم . ولكنه وهو فى طريقه خرج عليه رجلان من مراد فقتلاه ظنًّا منهما أنه لص[٢] .

وهكذا كان الأباضية خلال السنوات الأخيرة من عمر الدولة الأموية آخر جبهات المعارضة الدينية ، وعلى الرغم من لينهم فقد كانوا شديدى التمسك بالدين وأرادوا أن يكسبوا جماعة المسلمين لمذهبهم بالسلم فلم ينجحوا فى ذلك فاضطروا إلى استعمال القوة ، وقد تبع زوالهم زوال بنى أمية وإن ظل أتباعهم إلى اليوم فى المغرب ، وقد تفرقت عنهم جماعات صغيرة خالفت عن مقولتهم خلافات غير جوهرية كالحفصية والحارثية واليزيدية .

---

(١) الأغانى / جـ ٢٠ / ص ١٠٩

(٢) انظر الطبرى / جـ ٩ ص ١١٠ ، ابن الأثير / جـ ٥ / ص ١٥٨ ، الأغانى جـ ٢٠ / ١١٢ ، البداية والنهاية / جـ ١٠ / ص ٣٦ .

٢

كان الخوارج حزباً ثورياً يعتصم بالتقوى ويقيم مبادئه على أسس إسلامية صرفة مستمدة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية وتقاليد الحكم وأنماط السلوك الخلقى فى عهد الخلافة الإسلامية الأولى .

وهم على هذا ليسوا حزباً سياسياً فحسب لا يعدو بحثه مسألة الخلافة كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين[١] .

وهم إن اقترنت نظرتهم بادئ الأمر بمسائل الخلافة والحكم فإن ذلك كان نتيجة لصعوبة الفصل بين السياسة والدين فى التصور الإسلامى لنظام الحكم فى عهد الخلافة الراشدة ، وقد صدروا فى ذلك عن وجهة نظر مستمدة من الكتاب والسنة النبوية وتقاليد الخلافة الأولى ولكنهم سرعان ما مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتية فاتخذت تعاليمهم صبغة فلسفية خاصة .

وقد نبعت نظريتهم فى الخلافة عن مبدأ دينى نقدى عريض وليس عن مبدأ سياسى محض كما قد يتبادر إلى البعض . وهذا المبدأ العام الذى يمثل القاعدة السلوكية الأولى لدى الخوارج ويعد منبعاً أصيلا لتعاليمهم فى الأصول إلى غايتهم الأولى هو العود إلى الكلمة الأصيلة للدين كما فى الكتاب والسنة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر استناداً إليهما .

وهذا يعنى أنهم عالجوا السياسة على أساس من التقوى ، فما دام الله عز وجل يطلب من المؤمنين ألا يسكتوا على منكر فقد اتخذ هذا الأمر صفة المسئولية العامة فضلا عن المسئولية الفردية بتجنب الشر وفعل الخير ، وتعيّن على المؤمن أن يعمل حتى يسود العدل وينهزم المنكر فتغيير المنكر واجب على كل مؤمن بلسانه وبيده ، وقد خالفوا أهل الجماعة فى قولهم بأن الخلافة فى

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ / ص ٤٢٠ .

قريش من هذا المنطلق إذ عدّوا قصرها على قريش أمراً لا يحقق العدل ولا المساواة اللذين جاء بهما الإسلام فهو منكر يجب على المؤمنين تغييره . وهم لا يعترضون على خلافة أبي بكر وعمر ، كما يصححون خلافة عثمان في سنيه الست الأولى وخلافة عليّ إلى أن حكّم وبكفره بعد ذلك ، وأيضاً يطعنون في أصحاب الجمل طلحة والزبير وعائشة ، ويكفرون الحكمين أباموسى وعمرو بن العاص، فقد قبض على عروة بن أدية وقدم إلى زياد بن أبيه فسأله زياد عن أبي بكر وعمر فقال فيهما خيراً وسأله عن عثمان فقال : كنت أتولاه على أحواله في خلافته ست سنين ثم تبرأت منه بعد ذلك وشهد عليه بالكفر ، ثم سأله عن عليّ فقال أتولاه إلى أن حكّم ثم أتبرأ منه بعد ذلك وشهد عليه بالكفر فسأله عن معاوية فسبه سبًّا قبيحاً [١] ويذهب الشهرستاني إلى أن الخوارج مجمعون على التبرئ من عثمان وعليّ وأنهم يقدمون ذلك على كل طاعة ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك ، ويكفرون أصحاب الكبائر ويرون الخروج على الإمام إذا خالف حقًّا واجباً [٢] ، ومن هذا المنطلق أنكر الخوارج خلافة بني أمية لاعتقادهم أنهم جائرون لا تنطبق عليهم شروط الخلافة ، وكان واجبهم في نصرة الله على أساس هذا المبدأ إذا خولف عن أمره يؤدي حتماً إلى تصادم مع السلطة الحاكمة ، فهم يؤمنون بألا سلطان على البشر إلا لله ، ولهذا تتنافى فكرة الملك في اعتقادهم مع إرادة الله فليس لأحد — قبل غيره حقوق تتصل بشخصه حتى تكون السلطة وراثية في أبنائه وأهله ، ولهذا أنكروا عقيدة الشيعة لقولها بانحصار الخلافة في عليّ وآله .

وعلى هذا لا تكون السلطة شرعية إلا إذا كانت تحكم باسم الله ووفق مشيئته أي أن تكون خاضعة للدين وللنقد القائم على أساس الدين . وهم بهذا يمثلون القطب السالب للحكومة الدينية إذ كان القطب الموجب هو قيام الجماعة الإسلامية في هيئة منظمة متحدة على رأسها إمام يرمز ويعبر عن وحدة الأمة

---

(١) الملل والنحل / ج ١ / ١٧٨

(٢) الملل والنحل / ج ١ / ١٧٢

الإسلامية . وفى التعارض بين الدولة والجماعة ، بين واجب أن يضع الإنسان الله والحق فوق كل شىء ، وواجب الخضوع لأمر الجماعة وإطاعة الإمام ، وقف الخوارج فى صف الدين بكل قوة .

أما عن فهمهم لماهية الدين فلا يختلفون عن سائر الناس ، وإنما يمتازون عنهم بشدتهم فى تقديم الدين على أى اعتبار آخر ، وتصلبهم بحيث لا يقبلون أدنى تساهل فى أمره ، فلا دولة على حساب الدين ، وحق لعلماء الغرب أن يطلقوا عليهم لقب متطهرى الإسلام [١] ، ذلك أنهم لا يعترفون بالدولة إذا لم يكن لها من مبرر إلا وجودها فى الواقع التاريخى [٢] .

ويرى الخوارج أن تكون الخلافة باختيار حر من المسلمين وهم يلقبون من أجل هذا بالجمهوريين ويمثلون بذلك المبادئ الديموقراطية المتطرفة [٣] .

ويمكن تلخيص نظريتهم فى الخلافة فى أنها حق لكل عربى حر وأنه إذا اختير الخليفة فلا يجوز له أن ينزل عن الخلافة وإذا جاز له استحلوا عزله أو قتله إذا اقتضت الضرورة [٤] .

وقد تطور الخوارج مع الأحداث فأدخلوا تعديلا على الشرط الأول واستبدلوا الإسلام والعدل بالعروبة والحرية وبخاصة بعد أن انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب فجعلوا الخلافة حقاً شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على السواء يناله كل مسلم كفء تجتمع فيه صفات العلم والعدل والزهد [٥] .

وقد شمل تشددهم السلوك ، فجعلوا الأعمال مكملة للإيمان ، والعمل بأمر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزءاً من الإيمان ، وليس الإيمان الاعتقاد

---

(١) تاريخ الأفكار السائدة فى الإسلام / ص ٣٦٠
(٢) الخوارج والشيعة / ص ٣٢
(٣) السيادة العربية / ص ٦٩ .
(٤) الملل والنحل جـ ١ ١٧٥ / ، والفرق بين الفرق / ص ٥٥
(٥) الطبرى / جـ ٩ / ص ١١٠ ، ابن الأثير / جـ ٥ / ص ١٤١

المجرد ، فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين أو ارتكب الكبائر فهو غير مؤمن ، فلم يفرقوا إذن بين المعصية والكفر وعندهم أن المخالفة الجزئية كالمخالفة الكلية ولهذا أكفروا أهل الجمل وصفين والحكمين وعثمان فى أخريات حكمه وعلىّ منذ أن حكّم ومعاوية وأعوانه .

ولا يكاد الخوارج يتفقون إلا فى هذين الأصلين وحتى هذان الأصلان ليسا من اعتقادهم جميعاً إلا بقليل من التسامح ، إذ أن منهم من يرى ألا حاجة للأمة إلى إمام وإنما على الناس أن يعملوا بكتاب الله من أنفسهم ويظهر أن هذه الفكرة قد فهمت من بعضهم من الشعار المشهور الذى رفعه المحكمة الأول « لا حكم إلا لله » بدليل ما روى من أن علياً سمعهم يقولونها فقال «كلمة حق يراد بها باطل ، نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله « وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل فى إمرته المؤمن ويستمتع بها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفىء ويقاتل به العدو وتأمن به السبل ويؤخذ به الضعيف من القوى حتى يستريح برٌّ ويستراح من فاجر» ويذكرا بن أبى الحديد أن الخوارج كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك ويذهبون إلى أنه لا حاجة إلى الإمام ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمر عليهم عبد الله ابن وهب الراسبى[1] وقد ظلت النجدات ترى ذلك إلى عهد متأخر وهم لا يجوزون نصب الإمام إلا بمقتضى[2] ، ولكننا على الرغم من هذا نستطيع أن نزعم أن الخوارج جميعاً متفقون على أصلين من أصل عقيدتهم هما أصل الخلافة وأصل الإيمان ، ولكنهم افترقوا إلى عشرين فرقة تخالف كل منها الأخرى فى بعض تعاليمها . وأشهر هذه الفرق فرقة الأزارقة وكان فقيهها نافع بن الأزرق ، وقد تميزت عن باقى فرق الخوارج بأنه لم تكن فرقة قط أكثر عدداً ولا أشد شوكة منها ، وقد كفر نافع المسلمين جميعاً ما عدا الأزارقة وقال إنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحداً من غيرهم إلى الصلاة إذا

---

(١) شرح نهج البلاغة / جـ ١ / ٢١٥

(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ص ١٩٣

دعاهم إليها، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوا منهم ولا أن يتوارث الأزرقى مع غيره . وهم فى اعتقاده مثل كفار العرب وعباد الأوثان لا يقبل منهم إلا السيف أو الإسلام ودارهم دار حرب تجب الهجرة عنها كما هاجر الرسول عن مشركى مكة ، وقد أحل قتالهم وقتل أطفالهم ونسائهم اعتقاداً منه بأن أطفال مخالفيه مشركون مخلدون فى النار كآبائهم ، ولا يجيز الأزارقة التقية فى قول أو عمل استناداً إلى قول الله عز وجل « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » ولقوله تعالى فيمن هم على خلافهم « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » (١) .

وكان نافع يستحل الغدر بمن خالفه ويكفر القعدة الذين لم يكونوا على رأيه فى القتال مع قدرتهم عليه ، وأوجب امتحان من ينضمون إلى الأزارقة ، وكفر مرتكب الكبيرة مستدلا بكفر إبليس الذى لم يرتكب إلا كبيرة واحدة حيث أمر بالسجود فأبى وقال « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » (٢) .

وأسقط نافع حد الرجم عن الزانى المحصن لأنه لم يرد عليه نص فى القرآن وأيضاً فقد أسقط حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال مع إيجابه الحد على قاذفات المحصنات من النساء وحكم بقطع يد السارق فى القليل والكثير (٣) ومن بدع الأزارقة أيضاً أنهم جوزوا أن يبعث الله نبيًّا يعلم أنه يكفر بعد نبوته أو يكون كافراً قبل بعثه .

وقد انفرد النجدات بتعاليم خاصة أهمها أن المخطئ بعد أن يجتهد معذور وهم لذلك يسمون بالعاذرية وقال نجدة إن الدين أمران : أحدهما معرفة الله ومعرفة رسله وتحريم دماء المسلمين وتحريم غصب أموالهم والإقرار بما جاء من عند الله جملة فهذا واجب معرفته على كل مكلف وما سواه فالناس معذورون بجهالته حتى تقوم عليه الحجة فى الحلال والحرام فمن استحل باجتهاده شيئاً محرما فهو معذور ، ومن خاف العذاب على المخطئ قبل قيام الحجة عليه فهو كافر (٤) .

---

(١) الكامل / ج ٣ / ص ٦٩

(٢) الملل والنحل / ج ١ / ١٨٦ (٣) نفس المرجع

(٤) الملل والنحل / ج ١ / ص ١٩٠ ، الفرق بين الفرق / ٦٧

واستحل نجدة دماء أهل العهد والذمة وأموالهم فى دار التقية ، وحكم بالبراءة ممن حرّمها ، وتولى أصحاب الحدود من موافقيه استناداً إلى العذر بالجهل ، وقال لعل الله أن يعذبهم بذنوبهم فى غير نار جهنم ثم يدخلهم الجنة ، وعلى هذا فلا تجوز البراءة عنهم ،وعظم جريمة الكذب على الزنا فقال من نظر نظرة أو كذب كذبة صغيرة وأصر عليها فهو مشرك ، ومن زنا وشرب وسرق غير مصر عليه فهو غير مشرك كما أسقط حد الخمر [١] وذلك أقرب إلى دعواه من أن يكون غلظ على الناس فى حدها تغليظاً شديداً كما يقول الشهرستانى [٢] .

وقد خالف نجدة نافعاً والأزارقة فى إجازته التقية استناداً إلى قوله تعالى « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ، وقوله تعالى « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » [٣] وخالفه أيضاً فى إجازة القعود مع الإيمان بأن الجهاد أفضل عملا بقوله تعالى « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » وأيضاً يجيز النجدات عدم نصب الإمام إذ على الناس أن يتناصفوا فيما بينهم فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز [٤] .

وتتفق الصفرية مع النجدات فى أنهم لا يكفرون القعد ما داموا متفقين فى الدين والاعتقاد ، ولكنهم يجوزون التقية فى القول دون العمل ، ويخالف الصفرية الأزارقة فى أنهم لم يحكموا بقتل أطفال المشركين ولا بتكفيرهم أو تخليدهم فى النار ، وفرقوا بين الكبائر التى يلزم فيها الحد والتى لا حد عليها لعظم قدرها وفظاعتها حتى إن أية عقوبة فى الدنيا لا تكفر عنها ، ومن هذا اللون من الكبائر ترك الصلاة ، وفى الوقت الذى لم يكفروا مرتكب الكبيرة التى لها حد وقالوا لا يصح أن يسمى إلا باسم الحد كأن يقال للذى سرق سارق

---

(١) الفرق بين الفرق / ص ٦٨

(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ص ١٩٢

(٣) الملل والنحل / جـ١ / ١٩٥ – ١٩٦

(٤) الملل والنحل / جـ ١ / ص ١٩٢

وللذى قذف قاذف فحسب فلا يسمى كافراً أو مشركاً فإنهم كفروا مرتكب الكبيرة الثانية التى لا حد لها . وقد قال زياد بن الأصفر أحد زعمائهم « الشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران : كفر بالنعمة وكفر بإنكار الربوبية . والبراءة براءتان : براءة من أهل الحدود سنة وبراءة من أهل الجحود فريضة [١] .

ولم يسقط الصفرية الرجم كما أسقطه الأزارقة ، ونقل عن الضحاك ابن قيس أنه جوز تزويج المسلمات من كفار قومهم فى دار التقية دون دار العلانية [٢] .

ويختلف الأباضية عن جميع فرق الخوارج فى أنهم لم يغلوا فى الحكم على مخالفيهم ولم يلجئوا إلى العنف معهم إلا مضطرين ، ولعل هذا يرجع إلى طبيعة الظروف التى صحبت نشأتهم إذ لم يخرجوا إلا فى أيام مروان بن محمد بعد أن قضى الأمويون على الخوارج أو كادوا . وبعد أن دب اليأس إلى الأحزاب أو كاد فتحول نضالهم من ثم حول الحكم إلى آراء ومذاهب تكاد تكون علمية بحتة ، وكان الاعتدال طابعهم المميز فقد أحلوا التزويج من مخالفيهم ، وأن يتوارثوا مع غيرهم ، وكان لمسالمتهم أثر فى عدم الغلو فقالوا لا يحل قتل غير الخوارج أو سبيهم غيلة ، ولا يجوز قتالهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة وإعلان القتال فإذا قاتلوهم وغنموا أموالهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيل ، أما الذهب والفضة أو غيرهما فإنهم يردونه إلى أعدائهم [٣] . وكانوا خلافاً للأزارقة يرون بلاد مخالفيهم من المسلمين ديار توحيد إلا معسكر السلطان من بنى أمية أو غيره من أمراء البغى فإنه دار بغى ، وعدوا مرتكب الكبيرة من أهل القبلة موحداً غير مؤمن فهو كافر كفر نعمة لا كفر ملة [٤]

---

(١) الملل والنحل / ج ١ / ص ٢١٨

(٢) الملل والنحل / ج ١ / ص ٢١٦

(٣) الفرق بين الفرق / ص ٨٣

(٤) الملل والنحل / ج ١ / ص ٢١٢

كما أجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم . وقرروا أن أفعال العباد . مخلوقة لله تعالى إحداثاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً وإن الاستطاعة عرض من الأعراض وهى قبل الفعل وبها يحصل ،ولم يسموا أنفسهم مهاجرين كالأزارقة كما لم يسموا إمامهم أمير المؤمنين وتوقفوا أيضاً فى أطفال المشركين وجوزا تعذيبهم على سبيل الانتقام وأجازوا أن يدخلوا الجنة تفضلا[١] .

هذه هى أهم تعاليم الخوارج ، وإن الناظر فى هذه التعاليم ليجد أنهم قد تشددوا وتصلبوا فى الغلو على مخالفيهم وفى مساواتهم بالكفار وعبدة الأوثان تماما كما اشتطوا فى حروبهم وبذلوا نفوسهم فى سبيل الذود عن مبادئهم حتى ضربوا المثل فى الشجاعة الخارقة والبطولة النادرة وشغلوا الدولة الأموية وكلفوها غالياً من الأرواح والأموال والجهد الذى كان يمكن أن يوجه لصالح الدين وانتشاره وللعمل من أجل التقدم الاجتماعى فى ذلك العصر ، ويرى بعض الدارسين أنه على الرغم من اشتطاطهم فى مذاهبهم التى أوردتهم حتفهم فإنهم كانوا المثل الأعلى فى الدفاع عن العقيدة والاستماتة فى سبيل الانتصار للمبدأ ، ولم تكن لهم مآرب شخصية يرمون إلى تحقيقها من وراء حركتهم كما كان لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى من شيعة وأمويين وزبيريين [٢] .

ويعيب عليهم بعض المؤرخين أن سياستهم لم تكن موجهة نحو أهداف يمكن تحقيقها فضلا عن أنها منافية للمدنية فقد كان شعارهم « لتكن عدالة ولو فنيت الدنيا بأسرها » وهو أمر لم يكونوا يجهلونه إذ لم يكونوا يعتقدون بانتصار مبادئهم على الأرض ،وإنما يرضون بأن يموتوا مجاهدين ، فهم يبيعون حياتهم ويحملون أنفسهم إلى سوق ثمن أرواحهم فيه هو الجنة[٣] .

أما أنهم كانوا بلا هدف يمكن تحقيقه فهذه فرية لأن هدفهم كان فيما

---

(١) الملل والنحل / جـ ١ / ص ٢١٣

(٢) Nicelson, Lit., Hist. of Arabs. p. 211.

(٣) الخوارج والشيعة / ص ٣٧

يقرره هؤلاء المؤرخون تقرير الأمور العامة وفقاً لأوامر الله ونواهيه(١) .

وأما أن هذا الهدف مثالى وبعيد عن الواقع ولا يمكن تحقيقه فهذه قرية أخرى ، إذ أمكن تحقيق تلك الأهداف المثالية فى حكومة الراشدين من قبل ، وإن كان يلذ للمؤرخين من المستشرقين بخاصة أن يشيدوا بحكومة بنى أمية لقيامها على الأسس المادية التى لا يعرفون سواها . كما يلذ لهم أن يغمزوا مبادئ الإسلام التى استوحاها الخوارج بأنها منافية للمدنية .

فتعاليمهم ليست إلا تعاليم الإسلام الأول فى نقاوته ، وإن تميزت طريقتهم فى الدعوة إليها بالعنف الذى يعد انعكاساً للاضطهاد الفظيع الذى لا قوه على أيدى السلطة الحاكمة ، كما أن كثيراً من تشددهم وجفوتهم ليس إلا أثراً لما اقترنت به نشأتهم فقد كانوا بدواً فى الأكثر (٢) .

ويبدو التناقض واضحاً فى زعم هؤلاء المؤرخين أن الأساس الذى يستند إليه هذا التهور فى التقوى هو الإيمان الحق بأن الدنيا عبث وأن بقاءها قصير وأن يوم الساعة قريب وأنهم كانوا يبذلون كل طاقة عسكرية من أجل تحقيق سياسة خلو من كل سياسة ابتغاء الفوز بالجنة ، فهو قول يتناقض مع شعارهم الذى قرروه من قبل « لتكن عدالة ولو فنيت الدنيا بأسرها » .

فقد كانت العدالة محور سياستهم فاستماتوا فى سبيل تحقيقها ، وعلى الرغم من تعجلهم إلى الله وتناديهم بالرواح إلى الجنة فلم يكونوا بحال من الأحوال فراشاً لا يملك إلا أن يحوم حول النار حتى يرتمى فيها كما حاول مؤرخ مثل فلهوزن أن يصورهم(٣) .

وفضلا عن هذا فقد كانت لهم فلسفتهم الخلقية المميزة فتشددوا فى العبادة ووصفهم الشهرستانى بأنهم أهل صوم وصلاة(٤) وكانوا فى مجموعهم يبرءون

(١) الخوارج والشيعة / ص ٣٦ .
(٢) الفكر العربى / ص ١٤٤ ، فجر الإسلام / ص ٢٦١
(٣) الخوارج والشيعة / ص ٣٧
(٤) الملل والنحل / جـ ١ / ص ١٧٣

من الكاذب والعاصي ، وكانت جباههم مقرحة لطول السجود ، وكانت أيديهم كثفنات الإبل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله ، ومضى الشباب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت إليه طير السماء .

وقد لاحظ بعض الدارسين أنهم قد وثقوا الصلة بين الأحكام الفقهية والمثل الخلقية العليا توثيقاً رائعاً ، وضرب لذلك مثلا قولهم إن ما يجرى على اللسان من كذب وغيبة وحقد وعداء وسباب وإقذاع مخرج من حالة الطهارة ، موجب للوضوء قبل الصلاة ولا تقل بحال فى نقضها للطهارة عن أثر القذارة الجثمانية[١] .

ومهما كان الأمر فقد كان الخوارج مؤمنين مخلصين فى إيمانهم قدر اجتهادهم ويكفى أنهم ضربوا مثالا رائعاً فى الديمقراطية والاعتداد بالمساواة والحرية حتى لم يأنفوا أن يجعلوا على رأسهم خليفة من الموالى كان معلم كتّاب ، ولم يفرقوا بين عربى ومولى فى ذلك التاريخ البعيد بينما لا زلنا نرى فى عالم المدنية الحر بشراً يستذلون بسبب ألوانهم وسلالاتهم .

وقد كان علىّ بن أبى طالب على الرغم من خروجهم عليه وتكفيرهم له ، يقدرهم ويثق فى إخلاصهم فقال فى آخر أيامه « لا تقاتلوا الخوارج بعدى فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه[٢] .

---

(١) العقيدة والشريعة / ص ١٧١

(٢) شرح نهج البلاغة / حـ ١ / ص ٤٠١

٣

كان التحكيم الذى أكره عليه علىّ إبان نزاعه مع معاوية فى صفين هو السبب المباشر لنشأة الخوارج فثاروا على علىّ إذ ارتضاه مضطرًّا تحت ضغط البعض من أنصاره ، بيد أن هذا السبب المباشر أوهى الأسباب لأن نزعة الخروج لم تكن تنقص هؤلاء الذين أصبحوا فيما بعد يعرفون باسم الخوارج ، فقد تكونت فى النفوس هذه النزعة الساخطة إبان حكم عثمان وما انتهى إليه أمر الجماعة المسلمة بعد مقتله من فرقة وتطامع فى الحكم والمغانم وتطلع إلى مراكز السيطرة والنفوذ مما يعد خيانة ظاهرة لجوهر الإسلام بوصفه ديناً وعقيدة وسلوكاً فى الحياة .

وقد انتهز قوم من الذين لجأوا إلى علىّ بعد الاشتراك فى السخط على عثمان فرصة التحكيم ليثوروا بالخليفة الجديد الذى ضيع حقه وسمح لنفس الآفة الطامعة أن تخدعه عنه فتحيّر فى أمره وأصبح وقد خلع نفسه بنفسه . وكانت فرصة التحكيم مناسبة للإعلان عما كان يعتمل فى نفوسهم من تذمر على ما آلت إليه الأوضاع التى لم تنته تماما بمقتل عثمان والتى استجدت فى خلافة علىّ القصيرة .

ونحن نظلم الخوارج إذا أرجعنا خروجهم إلى أزمة التحكيم فحسب ، فالحقيقة أنهم يمثلون تياراً أصيلا فى طبيعة تطور الدين ، وهو التعبير العميق الشعور الصادر عن النفوس الشديدة الإيمان بإزاء تباين التطبيق عن النظر الذى جاء به الدين الحق ، وخلاصة هذا التيار هو العودة إلى الكلمة الأصيلة للدين معبراً عنها فى القرآن الكريم دون تأويل ولا ترخيص بل بتشدد فى الفهم لا يقبل المساومة والالتواء[١] .

---

(١) مقدمة الخوارج والشيعة لعبد الرحمن بدوى / ص (و) .

و يتجلى هذا بوضوح فى إعلانهم قصر الطاعة العمياء على ما ورد فى القرآن والسنة فحسب من قواعد وأحكام وطرائق للسلوك وفى التمسك الشديد بعمود الدين فى مواجهة التيارات والفرق والأحزاب التى أصبحت فى اعتقادهم قد حادت عنه أو تأولت فيه .

ونحن نشعر بغير قليل من الحذر بإزاء كثير من الأحاديث النبوية المنسوبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم عن نشأة الخوارج والتنبؤ بأوصافهم وسماتهم والحض على قتالهم والتنبؤ باستئصالهم على يد طائفة هى أولى بالحق . فقد كان لاستعار الصراع بين الدولة والفرق المعارضة من ناحية ولنزاع الفرق فيما بينها من ناحية أخرى نتائج مؤسفة فى وضع الأحاديث وتزييفها واستغلالها سلاحاً مشهوراً فى وجه الخصوم والمناوئين ، وهى أحاديث تربط بين ظهور الخوارج وبين رجل من تميم مشكوك فى اسمه وصفاته ومختلف على هذه الصفات بين الرواة . وكان هذا الرجل قد اعترض على الرسول فى الجعرانة وهو يقسم فيئاً جاءه من اليمن منصرفه من حنين فقال للرسول : « اعدل فإنك لم تعدل » ، والحادثة ممكنة الحدوث ولكن التنبؤ الذى تذيل به الحادثة بعيد عن أن يحدث إذ لا يجدر بالرسول من عدة وجوه .

وعلة هذا الربط كما لا يخفى إيجاد صلة بين نزعة الاعتراض التى أبداها هذا الرجل يوم اعترض على النبى ، وروح الاعتراض التى تجلت عند الخوارج على التحكيم ، وعلى الإمام فيما بعد ، وكلمات الحديث تتفق على أن سيخرج من ضئضئ هذا الرجل قوم يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ويمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية[1] .

وليس هناك ما يدعو إلى اصطناع مثل هذه الصلة لأنها فى غير حاجة إلى إثبات ، فمما لا شك فيه أن نزعة الاعتراض هى السمة الغالبة على الخوارج ، والشىء الجدير بإنعام النظر أن الاعتراض على على كان من طائفة القراء التى

(١) صحيح مسلم / جـ ٣ ص ١٠٩ – ١١٦

كانت أول من رأى إجابة أهل الشام إلى ما دعوا إليه من تحكيم كتاب الله ، أى الذين دفعوا عليًّا إلى وقف القتال أخذوا عليه أنه ترك أمر الخلافة إلى هوى متفاوضين من الناس فكأنهم قبلوا تحكيم كتاب الله ورفضوا تحكيم البشر وخرجت صيحتهم المعروفة لا حكم إلا لله .

ونلقى فى تفسير ما حدث بعد رفع المصاحف فى صفين ، وما كان بعدها من تحير فى أنصار علىّ رأيين متعارضين أولهما يقول إن جماعة القراء أوقفت القتال وأرغمت عليًّا على استدعاء الأشتر وتحكيم كتاب الله ، وإن جماعة البدو التى صارت فيما بعد كتلة الخوارج هى التى احتجت على وقف القتال ، ويقول بهذا الزعم المستشرق الألمانى برنوف ولكن فلهوزن لا يجد ضرورة لتوكيد وجود هوة بين جماعة القراء وجماعة الخوارج من أجل أن يوزع دور السقوط ودور النهوض على فريقين مختلفين ، وفى الحقيقة لا يستبعد إطلاقاً أن يكون نفس الأشخاص قد ضلوا السبيل فى أول الأمر ثم ثابوا إلى رشدهم من بعد[1] وذلك لأن القراء هم خير من يمثل اتجاه الخوارج فكراً وصلاحاً وتشدداً وتقوى وتوجيها ونقداً للناس وإثارة لحميتهم وإيماناً بالجهاد .

وقد شعروا بعد صفين بالخطأ الذى ارتكبوه وودوا لو رجعوا عن باطلهم ، وأيقنوا بما ظهر لهم أنه جوهر الإيمان ، وعدوا الحيرة التى طرأت عليهم ذنباً عظيما فوطنوا العزم على التكفير عنه بالعمل الذى يبدأ بالتوبة ، ولهذا طالبوا عليًّا وسائر القوم بأن يتوبوا عن باطلهم بالأفعال ولو لم يكن الأمر على هذه الصورة لكان عدوهم الألد مالك بن الأشتر من أحق الناس بلقب الخوارج فربما كان الوحيد الذى لم يترك نفسه تنساق فى الضلال واحتج على التحكيم مع أهل الشام .

فلا مقتضى إذن لافتراض وجود طائفتين مختلفتين تتقاسمان دور الإيقاف ودور الاعتراض ، وليس هناك مبرر للتفريق بين جماعة القراء وجماعة البدو

---

(١) الخوارج والشيعة / ص ٢٣

فليس ثمة مانع من أن يكون هؤلاء هم أولئك وبخاصة إذا كانت هناك قرائن أخرى تضم إلى ملامح الخوارج التى تنحل للقراء كقراءة القرآن والتفكير فيه آناء الليل وأطراف النهار والعكوف على العبادة والسهر ولبس البرنس فضلا عن وجود أسماء على سبيل التحديد عرفت فى طائفة القراء وصارت فيما بعد أشد الخوارج حماسة وحمية من مثل مسعر بن فدكى التميمى وزيد بن الحصين الطائى[١] .

وقد ثبت بالقطع أن هذين الرجلين قد قالا لعلىّ وشاركهما فى قولهما الأشعث بن قيس عند رفع المصاحف « القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف » فقال علىّ « أنا أعلم بما فى كتاب الله .. انفروا إلى بقية الأحزاب .. انفروا إلى من يقول كذب الله ورسوله ، وأنتم تقولون صدق الله ورسوله » ، فقالا : « لترجعنّ الأشتر عن قتال المسلمين وإلا لنفعلنّ بك كما فعلنا بعثمان » فاضطر إلى رد الأشتر بعد أن هزم الجمع وولوا مدبرينّ وما بقى منهم إلا شرذمة قليلة فيهم حشاشة قوة فامتثل الأشتر أمره[٢].

ويذكر الشهرستانى هذين الرجلين بأنهما كانا من أشد من كانوا مع على خروجاً عليه ومروقاً من الدين ، وأيضاً كان الأشعث بن قيس[٣].

وقد تنبه لهذه الحقيقة ابن أبى الحديد فى قوله « لما قال أهل الشام إننا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص ، وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد قد رضينا نحن واخترنا أبا موسى فقال لهم علىّ : « فإنى لا أرضى بأبى موسى ولا أرى أن أوليه » ، فقال الأشعث وزيد ومسعر فى عصابة من القراء « إنا لا نرضى إلا به ، فإنه كان حذرنا ما وقعنا فيه » ، فقال علىّ « فإنه ليس لى برضاً ، وقد فارقنى وخذّل الناس عنى وهرب منى حتى أمنته بعد شهر ، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك » ، قالوا : « والله ما نبالى أكنت أنت

---

(١) الخوارج والشيعة / ص ٢٤
(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ١٧٠ – ١٧١
(٣) الملل والنحل / جـ ١ / ص ١٧٠

أو ابن عباس ولا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكما أدنى من الآخر » قال علىّ : « فإنى أجعل الأشتر » فقال الأشعث : « وهل سعر الأرض علينا إلا الأشتر ؟ وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ؟ » قال علىّ « وما حكمه ؟ » قال : « حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد »[1] . .

وابن أبى الحديد يفصل بوضوح بين الأشعث من ناحية وبين هذين الرجلين والقراء من ناحية أخرى ، ويبرز فى وضوح أيضاً موقفهما من رفع المصاحف والاعتراض على الأشتر وابن عباس وتأييدهما لأبى موسى وكان علىّ كارهاً له ثم يقرر فى وضوح كذلك أن القراء قد صاروا خوارج فيما بعد .

ولا بد لنا ونحن نحاول الوصول إلى الحقيقة فى نشأة هذه الفرقة من أن نشير إلى هذا الرأى الذى يعد اقتفاء لأثر سيف بن عمر ويحاول أن يقرن بين الشيعة والمحكّمة الأولى قبل الخروج فى جيش علىّ بن أبى طالب ، وخلاصة هذا الرأى الذى يرمى إلى البحث عن أصول الخوارج لدى فرقة السبئية أنه ما دام قادة الخوارج الأول أو بعضاً منهم على الأقل كانوا يعارضون عثمان وولاته واشتركوا جميعاً فى مسئولية قتله وفاخروا بهذا الاشتراك ، فلا بد أن يكونوا من السبئية ، ويذكر سيف بن عمر بعضاً منهم صراحة فيمن خرجوا فى حروراء والنهروان ومنهم ابن ملجم وإن أسقط الأشتر ممن ذكر .

والحق أن الذين اشتركوا فى مسئولية الشغب على عثمان وقتله لم يكونوا جميعاً من السبئية حتى يصدق هذا الرأى وإنما لاذ بعلى كل الثوار على عثمان وهم طوائف شتى وغيرهم من الذين لم يشغبوا عليه كذلك .

ولقد كان لقب السبئية يطلق على طائفة بعينها ، واستعماله الدقيق إنما ينطبق فحسب على غلاة المتشيعين لعلىّ ، وكانوا ظاهرين ومتميزين عن بقية أنصار علىّ كما يتضح من قول الطبرى عنهم فى البصرة قبل الجمل « وأقبل

(١) ابن أبى الحديد / جـ ١ / ١٨٩

القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجرى الصلح »[١] .

ولو أن المرء سلم بأن السبئية كانوا قتلة عثمان الحقيقيين ، وأنهم كانوا لهذا السبب التربة المشتركة التى نبتت فيها الشيعة والخوارج على السواء لبقى أن يفسر المرء لماذا بقى اسم السبئية علما على غلاة الشيعة وحدهم فيما بعد ؟ وسيكون معنى هذا أن الخوارج صاروا خوارج بعد خروجهم على السبئية وانفصامهم عنهم ، ولكن الحقيقة أنهم صاروا خوارج لخروجهم على الإمام ، وكان انفصالهم عن السبئية نتيجة لذلك « فقد أقبل السبئية والخوارج بعد أن فشا التحكيم يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويتضاربون بالسياط ، يقول الخوارج : يا أعداء الله أوهنتم فى أمر الله عز وجل ، وحكّمتم ، ويقول الآخرون (السبئية) :« فارقتم إمامنا وفارقتم جماعتنا »[٢] .

وحقيقة الأمر أن الخوارج لم ينشأوا فى أحضان السبئية ، ويبدو ذلك من التعارض الشديد بين مذهبيهما بما يقطع بأنهما لم ينشئا فى بيئة واحدة أبداً ، فبينما يقرن السبئية عقيدتهم بصاحبها تماما فالخوارج يفصلونها عنه فصلا تاما ، إذ أن السبئية يقرنون العقيدة بالأئمة ويتحمسون لهما معاً تحمساً يخرج إلى حد التقديس لأشخاصهم ، ولكن الخوارج يفرقون بين العقيدة وبين الأئمة تفريقاً تامًّا فتحمسوا للإسلام ولم يتحمسوا للأمة ، وحينما دب النزاع العنيف بين المحكمة وأنصار علىّ الغالين لام المحكمة هؤلاء على تأييدهم لعلىّ حتى ولو ضل السبيل ، وأصبحوا فى اعتقادهم عبيداً شأنهم شأن أهل الشام الذين تبعوا معاوية فى كل الأحوال دون أن يتساءلوا ما إذا كان على صواب ؟

وخلاصة القول إن الخوارج قد نشأوا نشأة إسلامية حقيقية وصادقة ، ولم يكن تيارهم الفكرى إلا تياراً إسلاميًّا يقصد قصدا جادًّا إلى الرجوع إلى الدين الحق فى تعاليم الإسلام الأولى على نقاوتها دون ترخص أو التواء ، كما جاء فى رسالة المستورد بن علفة وهو من كبار زعمائهم إلى سماك بن عبيد العبسى

---

(١) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٠٧

(٢) الطبرى / جـ ٦ / ص ٣٥

عامل المغيرة بن شعبة على المدائن أثناء خروجه لعهد معاوية « إننا ندعوك إلى كتاب الله القوى العزيز ، وإلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهدى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، والإنكار على عثمان وعلىّ لإفسادهما الدين الحق وإنكارهما لسلطان القرآن »[١] .

ومن هذا يظهر أن أصول مبادئ الخوارج لم تكن إلا تعاليم الإسلام الأولى فى المساواة والعدل التى عطلت ، كما أنهم لم يأتوا فى أمر الخلافة بغريب أو مستنكر أو بعيد عن روح الإسلام فهم يرون أن من حق الأمة إسقاط الإمام الذى يحيد عن الطريق القويم الذى سنه الله ومهده رسوله ويقررون أن الإمامة تحق لمن تختاره الأمة أيًّا كان ولو كان عبداً أسود ، وفى هذا نزعة إسلامية ديمقراطية .

وليس صواباً إذن ما فهمه بعض الباحثين المحدثين[٢] تأسيساً على مذهب بعض المستشرقين[٣] من أن هذه الروح ترجع إلى نزعتهم القبلية المتعصبة على قريش ومللهم من الخضوع للسلطان والحكم المركزي نتيجة استئثارها بالخلافة ، أو أنه يرجع إلى أنهم لم يعودوا ينظرون إلى قريش نظرة تقديس فرغبوا فى رئيس من دمائهم حتى يستطيعوا طاعته[٤] .

وهذا وهم باطل من أساسه ، فقد دعا الخوارج إلى الشورى وهى فكرة إسلامية عربية دعا إليها القرآن وأقرها النبى والشيخان واعتمدها ابن الخطاب أساساً لاختيار خليفته .

وكل ما يمكن أن يؤخذ عليهم هو هذه القسوة البالغة فى الاستعراض واستحلال قتل مخالفيهم من المسلمين ، وإن كان يمكن أن نلتمس لقسوتهم فى الحق عذراً ، لأنهم كانوا يوقنون فى أعماقهم بأن خير الإيمان الجهاد بالسيف

---

(١) الطبرى / ج ٦ / ١١٠

(٢) انظر / عبد العزيز الدورى ٪ مقدمة فى تاريخ الإسلام / ص ٧٠

(٣) العقيدة والشريعة / ص ١٧٠

(٤) Nicilison, Lirt. Hist. of Arabs. p. 208

فى سبيل إعلاء كلمة الدين كما يبدو فى حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى الفقيه إلى جماعة القراء : « إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم ، إنى سمعت عليًّا رفع الله درجته فى الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصديقين يقول يوم لقينا أهل الشام : « أيها المؤمنون إنه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الظالمين السفلى ، فذلك الذى أصاب سبيل الهدى ونور فى قلبه باليقين »[1] .

وليس شك فى أن الخوارج بهذا كله كانوا ثماراً للفكر الإسلامى فى إيمانهم وعقائدهم وسلوكهم بل وفى تسميتهم أيضا فقد قيل إنهم سموا بالخوارج من الخروج فى سبيل الله أخذاً من قوله تعالى « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » .

وإنهم سموا بالشراة أى الذين باعوا أنفسهم لله من قوله تعالى « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » وكان هذا هو الاسم الأثير لديهم ، كما كان اسم المحكّمة أثيراً لديهم أيضاً لأنه مشتق من شعارهم « لا حكم إلا لله » .

---

(١) الطبرى / جـ ٦ ص ١٠٨